

أ.د/عبد الفتاح عاشور
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
ورئيس قسم الدراسات الإسلامية
بكلية التربية ـ جامعة الأزهر

نظرات نورانية في القرآن الكريم

(سورة الصف)

دار البيان للطباعة والنشر
١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢م

دار البيان

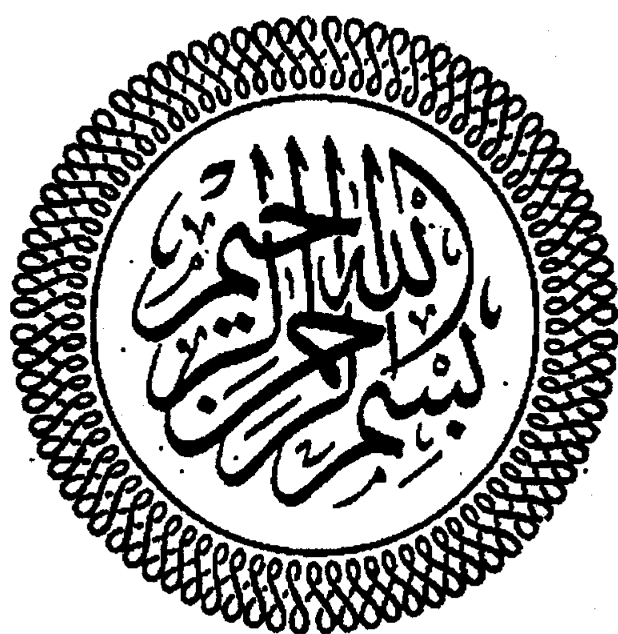
للطباعة
والنشر
والتوزيع




٧،٤ عمارات الجبل الأخضر
بجوار نادى السكة الحديد
ووزارة المالية الجديدة
مدينة نصر - القاهرة
تليفاكس: ٤٨٢٢٤٨٧
ت: ٤٨٣٤٣٢٧

رقم الإيداع: ٢٠٠٢/١٨٤٥

الترقيم الدولى
977-335-568-1


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الذى أنار قلوبنا وعقولنا وحياتنا بنور القرآن ، وأشهد أن لا إله إلا الله الإله المعبود والرب المقصود، أسأله،أن يلهمنا الرشاد والسداد، وأن يعلمنا من علمه حتى نفهم عنه ما يقول ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله،كان قرآنا يمشى بين الناس، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح للجماعة وجاهد فى الله حق جهاده وعبد ربه حتى أتاه اليقين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم وسار على نهجهم إلى يوم الدين...

أما بعد

فهذه نظرات نورانية فى القرآن الكريم، كنت بدأتها بكتاب صدر لى عام ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م عنوانه : نظرات فى سورة الفرقان، كما سبق هذا الكتاب ولحقه كتب أخرى فيها آيات من القرآن الكريم تحت عناوين مختلفة وكلها غوص فى بحار القرآن العظيم وتأمل فى آياته، وهذه نظرات فى سورة« الصف» نقتبس بها من نور الله فى هذه السورة الكريمة ما ينير لنا الطريق، وسوف نقف بإذن الله تعالى ـ أمام كلماتها نتناول كل كلمة لنمعن فيها النظر ليتضح لنا أنها درة غالية، وجوهرة ثمينة ينبعث نورها ليضىء جنبات الحياة، ولتحقيق هذا الهدف أجمع الكلمة من القرآن لتكون نورا أهتدى به فى بيان ما جاء من كلمات وتعبيرات فى السورة، وهذا لون من التفسير الموضوعى للقرآن الكريم، وقد يحتاج الأمر إلى تحليل لغوى، أو بيان وجه بلاغى، فأذكر ذلك ، وهناك السنة النبوية المشرفة ـ وهى البيان لما جاء فى كتاب الله ـ سوف أنهل من معينها، وأرتوى من حياضها، وسوف أختار منها ما يبين ما فى العبارة القرآنية من معانى وأهداف، وسوف ترى أننى لم أفصل بين المباحث اللغوية والبلاغية وما تحمله الآيات من المعانى [كما فعلت فى سورة الفرقان] إنما تركت القلم يلتقط من

جواهر الآيات ولآلئها دررا غالية، وحكما عالية، ودروسا نافعة، كما فعل المفسرون فى القديم والحديث حيث يتناولون الآية فيفسرونها متتبعين لكلماتها يذكرون ما فيها من المعانى اللغوية والبيانية ويُعَرِّجُ كل منهم عليها بما له من ميول علمية فهذا يتوسع فى ذكر ما جاء من الآثار فيما عرف بالتفسير المأثور، وذاك يعتنى بالمباحث اللغوية والبيانية، وهذا يوجه همته إلى الجوانب الفقهية أو الاعتقادية، وهكذا، وعلى طريق هؤلاء الجهابذة أسير، ولكنى لست أسيرا لما ذكروه، فإن القرآن العظيم لا تنقضى عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، فاللهم اجعله ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا، وجلاء همومنا وغمومنا،وهيئ لنا من أمرنا رشدا، برحمتك يا أرحم الراحمين ـ وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

أ.د/ عبدالفتاح عاشور

بين يدى السورة

قبل أن نبدأ فى التقاط درر القرآن فى هذه السورة سنقف أمام أمرين:

الأمر الأول:-

وجه المناسبة بينها وبين السورة السابقة:

والسورة السابقة هى سورة الممتحنة، فما وجه المناسبة بينها وبين سورة الصف؟ إنك لو قرأت سورة « الممتحنة» لوجدت أنها تؤصل للعلاقة بين المؤمنين وغيرهم من قوى الكفر والشرك والطغيان، وتبين أنه لاموالاة ولا نصرة ولا مودة ولا صحبة بين المؤمنين ومن ناصبوهم العداء من المشركين وغيرهم ، فإن وضع هؤلاء الأعداء سلاحهم، وأرادوا حياة آمنة فى ظل عدالة الإسلام فلهم البر من أهل الإسلام، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين يقول تعالى:﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١).

وتلفت أنظار المؤمنين إلى أنهم خرجوا من مكة لله جهادا فى سبيله، وطلبا لمرضاته، فلا يليق بهم موالاة أعدائه ومن غضب عليهم، فكان ختام السورة :
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ (٢).

ولذلك أتت سورة« الصف» تعلن تنزيه ما فى السموات وما فى الأرض لله الذى لا يُغْلب، الحكيم فيما قضى وقدر، فهو مستغن بذاته عن خلقه، والخلق هم

---

(١) الممتحنة ٦٠/ ٨، ٩ .
(٢) الممتحنة ٦٠/ ١٣

المحتاجـون إليه، إن نصروه نصرهم ، وإن والوه و الاهم، وإن جـاهدوا فى سبيله أحبهم، وإن تاجروا معه ربحـوا، بهذا نطقت آيات السورة، اقرأ ـ إن شئت ـ قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ وقوله :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

يقول الإمـام الألوسى:" مناسبتهـا لما قبلها اشـتمالها على الحث على الجـهاد والترغيـب فيه، وفى ذلك تأكيـد النهى عن اتخاذ الكفار أولياء الذى تضـمنه ما قبل مـا فيه " [1]ويقول الإمام البقـاعى فى كتابه: " نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور": "لما خُـتِمت الممتحنة" بالأمـر بتنزيهه ـ سبحـانه ـ عن تولى من يخالف أمره بالتـولى عنهم، والبراءة منهم اتبـاعا لأهل الصافـات المتجـردين عن كل ما سـوى الله لا سيـما عـمن كانوا إذا قـيل لهم لا إله إلا الله يسـتكبرون، افـتتـحت «الصف»بما هو كالعلة لذلك فقال: سبح لله ما فى السموات وما فى والأرض ... إلى آخر ما قال عليه رحمة الله [2] فما أعظم هذا القرآن الذى ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [3].

الأمر الثانى: هل هذه السورة مكية أو مدنية؟

وإنما نبحث فى آيات القرآن وسوره عن ذلك لنعرف أهداف السورة وطبيعة أسلوبهـا والموضوعـات التى جاءت تتـحدث عنهـا فنعرف بذلك مـسيـرة دعوة الإسلام وتدرجها فى تربية الأمة قولا وعـملا، وحكمة الله فيما شرع من أحكام، إلى غـير ذلـك مما ذكره الأئمـة الأعـلام، وهم يتـحدثون فـى كتـبـهم عن المكى والمدنى، وهو من مباحث علوم القران المهمة.

---

(١) روح المعانى للألوسى جـ٢٨/ ص ٨٣.
(٢) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للإمام البقاعى جـ٧ ص ٥٧٠.
(٣) هود ١١/ ١.

وقد قيل بأن سورة« الصف» مكية ، والراجح أنها مدنية، حتى قال الإمام الماوردى: إنها مدنية فى قول الجميع [1]وسبب النزول يؤكد ذلك: ففد روى عن عبد الله بن سلام ـ رضى الله عنه ـ قال: قعدنا نفرا من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا فقلنا:لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله عز وجل لعملناه، فأنزل الله تعالى:﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾وما بعدها من سورة الصف فقرأها علينا رسول الله ﷺ ، وهناك فى سبب النزول وجهان آخران ، ذكرهما ابن جرير وغيره،أولهما:أنها نزلت فى قوم من أصحاب رسول الله ﷺ كان أحدهم يفتخر بالفعل من أفعال الخير التى لم يفعلها، فيقول: فعلت كذا وكذا فعاتبهم الله على ذلك، والثانى: أنها نزلت فى قوم من المنافقين كانوا يعدون المؤمنين بالنصر وهم كاذبون، وقد رجح ابن جرير قول من قال بأنها نزلت فى من تمنوا من الله أن يدلهم على أفضل الأعمال التى يتقربون بها إلى الله تعالى ، فدلهم الله على ذلك، وبين لهم أن أفضل الأعمال هو الجهاد فى سبيل الله، بكل ألوان الجهاد:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [2] إلى آخر الآيات فى السورة.

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن الكريم : للإمام القرطبى جـ١٨ ص ٧٧.

(٢) انظر فى بيان أسباب النزول: تفسير : ابن جرير الطبرى : جامع البيان جـ٢٨/ ٨٣ ـ ٨٥ وغيره من كتب التفسير.

التفسير

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الله تعالى : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(١)

فما هو التسبيح فى لغتنا العربية؟ وكيف ورد فى كتاب الله؟ وما فى هذا التلوين فى استعمال الكلمة من أسرار؟ ولماذا قال« سبح لله» مع أن هذا الفعل يتعدى بنفسه. كما فى قوله تعالى:﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ﴾ (٢).

وقوله:﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ (٣).

تساؤلات كثيرة حول الآية الكريمة.

التسبيح فى اللغة: تنزيه الله جل ثناؤه من كل سوء، هكذا يقول ابن فارس فى « معجم مقاييس اللغة» (٤)ويقول ابن منظور فى « لسان العرب»«التسْبيح»: التنزيه، و«سبحان الله » معناه تنزيها لله عن الصاحبة والولد، وقيل:تنزيه الله تعالى عن كل ما لا ينبغى له أن يوصف به»(٥) وقال الراغب فى مفرداته:« التسبيح : تنزيه الله تعالى، وأصله المَرُّ السريع فى عبادة الله تعالى ، وجعل ذلك فى فعل الخير، كما جُعِل [الإبعاد] فى الشر، فقيل أبعده الله »(٦).

فما جاء فى كتب اللغة كله متقارب، وكله يعنى تنزيه الله، بمعنى نفى كل صفة ذميمة عن الله، من تلك الصفات التى وصفه بها المبطلون، فكأن التسبيح تخلية، والتقديس والتحميد والتمجيد، وما إلى ذلك من صفات الكمال

(١) سورة الصف الآية ١.
(٢) طه ٢٠/ ٣٣.
(٣) الأعراف ٧/ ٢٠٦.
(٤) معجم مقاييس اللغة : لابن فارس ٣/ ١٢٥ .
(٥) لسان العرب لابن منظور ٢/ ٣ ص ١٩١٤.
(٦) مفردات ألفاظ القرآن : للراغب الأصفهانى ٢٢٦.

والجلال، كل ذلك تحلية،والتخلية والتحلية يجمعهما قول:[لا إله إلا الله] فإنها جمعت بين النفى والإثبات، نفى الألوهية عن غيره، وإثباتها له جل وعلا..

ولذلك إذا تأملنا فى الآيات التى ورد فيها التسبيح سوف نجد أنها تبدأ به ثم تأتى الصفات الأخرى بعد ذلك ، ترى ذلك ـ على سبيل المثال ـ فى السور التى افتتحت بـ « سبح» فى الحديد والحشر والصف [موضوع بحثنا] وفيها وصفه ـ سبحانه ـ بعد التسبيح بأنه العزيز الحكيم ، وفى « ا لجمعة» : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ وفى « التغابن» : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

وفى الإسراء :﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ (١).

وهكذا يبدأ القرآن بالتسبيح قبل وصف الله بالصفات الأخرى.

وفى السنة المشرفة ترى هذا أيضا:فحين يرغب رسول الله ﷺ المؤمنين فى ذكر الله يعلمهم أن يبدأوا بالتسبيح أولا،ففى الحديث المتفق عليه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان، حبيتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

وعنه أيضارضى الله عنه قال:قال رسول الله ﷺ:لأن أقول:سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله ، والله أكبر، أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس [رواه مسلم].

وعنه أيضا قال:قال رسول الله ﷺ :« من سبح الله فى دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين وحمد الله ثلاثا وثلاثين، وكبّر الله ثلاثا وثلاثين، وقال تمام المائة لا إله إلا

---

(١) الإسراء ١٧/ ٤٤.

الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيئ قدير، غُفرت له خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر[ر واه مسلم] .

وروى مسلم عن كعب بن عجرة رضى الله عنه عن رسول الله قال: معقبات [أى تسبيحات تقال عقب الصلوات] لا يخيب قائلهن ـ أو فاعلهن ـ دبر كل صلاة مكتوبة:«ثلاث وثلاثون تسبيحة، وثلاث وثلاثون تحميدة، وأربع وثلاثون تكبيرة»

ولمكانة التسبيح فى دين الله عظُم ثواب المسبحين، فقد روى مسلم عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: أيعجز أحدكم أن يكسب فى كل يوم ألف حسنة؟ قال: يسبح مائة تسبيحة، فيكتب له ألف حسنة ، أو يحط عنه ألف خطيئة »"وفى رواية : ويُحط عنه "فهذه الرواية جمعت بين الحسنين: كتابة ألف حسنة، وحط ألف خطيئة.

وعن أم المؤمنين: جويرية بنتِ الحارث ـ رضى الله عنها ـ أنّ النبى ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهى فى مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى وهى جالسة، فقال: ما زلت على الحال التى فارقتك عليها؟قالت:نعم، فقال النبي ﷺ: لقد قلتُ بعدك أربع كلمات ـ ثلاث مرات ـ لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه، ورضا نفسه وزنة عرشه، ومداد كلماته» [رواه مسلم]إلى غير ذلك من التوجيهات النبوية الكريمة.

والتسبيح شعار الأنبياء والصالحين، وطريق النجاة من كل كرب وضيق:

فهذا يونس عليه السلام كان سبب نجاته من الظلمات: ظلمات البحر، وظلمات بطن الحوت،وما نزل به من هم وغم أنه كان من المسبحين، قال تعالى:﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ

مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (١).

وهذا التسبيح هو الذى ذكره الله فى قوله: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢).

والملائكة مع طهرهم لا يفترون عن تسبيح ربهم، ترى ذلك فى أكثر من آية:
يقول تعالى: ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴾(٣).

ويقول: ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ ﴾(٤).

وهذا موسىٰ عليه السلام يقول الله فيه: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٥).

وهذا عيسى عليه السلام يقول الله فيه: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ

---

(١) الصافات ٣٧/ ١٣٩ ـ ١٤٨.
(٢) الأنبياء ٢١/ ٨٧, ٨٨.
(٣) الأنبياء ٢١/ ١٩, ٢٠.
(٤) فصلت ٤١/ ٣٨.
(٥) الأعراف ٨/ ١٤٣.

إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾(١).

وفى خمسة عشر موضعا فى القرآن الكريم أمر الله رسوله محمدا ﷺ أن يسبحه ، وأن يطيل هذا التسبيح ففى ذلك راحة قلبه، ورضا نفسه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ (٢).

وقال : ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾(٣).

إلى غير ذلك من الآيات، هذا بالإضافة إلى الآيات التى يتوجه فيها الأمر إلى المؤمنين ـ ورسول الله ﷺ أول المؤمنين ـ وذلك كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾(٤).

فالتسبيح ـ إذًا ـ شعار ملائكة الرحمن، وقول كريم للأنبياء والمرسلين والمؤمنين، مما يدلك على عظيم مكانته ومنزلته، ولهذا افتتحت به سور من القرآن الكريم، ومنها سورة الصف.

بقى أن نتساءل عن سبب مجى التسبيح مرة فعلا ماضيا، وأخرى مضارعا، ومرة أمرا وأحيانا مصدرا أو اسم فاعل، إلى غير ذلك؟

ولعل هذا ليشمل الزمان كله فى ماضيه وحاضره، وفى جميع أحواله وأطواره، فالكون كله منذ خلقه الله سبح لله، وما زال يسبح: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾(٥) .

(١) المائدة ٥/ ١١٦.
(٢) الإنسان ٧٦/ ٢٦.
(٣) طه ٢٠/ ١٣٠.
(٤) الأحزاب ٣٣/ ٤١ , ٤٢.
(٥) الإسراء ١٧/ ٤١.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾(١).

وقد أمر الله رسوله محمـدا ﷺ أن يسبحه فقال: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾(٢) وقال ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾(٣) كما وجه الأنظار إلى التأمل فى مخلوقـاته فقال تعالى :﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ* وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾(٤).

وقال:﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ *الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾(٥).إلى غير ذلك من الآيات

والذى معنا فى سورة الصف ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فهذا التسبيح جاء فعلا ماضيا ليبين أن ما فى السموات وما فى الأرض ـ منذ خلقـه الله ـ سبح لله ، وتأتى الآيات الأخرى لتبين أن هذا التسـبيح مستمـر متواصل حين تأتى السورة التاليـة ـ سورة الجمعة ـ وما بعـدها لتبدأ كل منهـما بقـوله تعـالى :﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

---

(١) النور ٢٤ / ٤١.
(٢) الحجر ١٥/ ٩٨.
(٣) النصر ١١٠/ ٣.
(٤) يس ٣٦ / ٣٣ ـ ٣٦.
(٥) آل عمران ٣/ ١٩٠ ـ ١٩٢.

وهذا التسبيح «لله» فما معنى أنه لله؟ وقد قلنا بأن « سبح» فعل يتعدى بنفسه كما فى قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: «كى نسبحك كثيرا» وكما فى قوله جَلَّ وعلا: وتسبحوه بكرة وأصيلا، ولكنه كثيرا ما يقول : «سبح لله»، أو «يسبح لله» فأتى باللام تأكيدا للتسبيح، كما تقول: شكرته وشكرت له، وحمدته وحمدت له، أو أن هذه اللام للتعليل، أى أن التسبيح من أجل الله إخلاصا له، وعبودية له، وطاعة له، أداءً لحقه، فهو الجدير بالتنزيه والتقديس، وهذا ما نلحظه فى اختيار لفظ الجلالة هنا وفى أمثاله من السور والآيات التى تجعل التسبيح لله.

وفى مواضع أخرى نرى التسبيح« بحمده» أو « بحمد ربهم» أو «باسم ربك العظيم» فهو حين اختار لفظ الجلالة أراد أن يملأ القلب والوجدان مهابة وجلالا، لما فى هذا الاسم الجليل من صفات الكمال والجلال فهو المستحق للألوهية، أى أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يُكفر، وأن تتوجه القلوب لمحبته وحده، وأن تطمئن فى رحابه، وتسكن إلى جنابه،وتخشع فى محرابه، فلا ترجو إلا هو ، ولا تخشى سواه، فهو معبودها لا معبود لها سواه، ولهذا تسبحه وتعظمه وتنزهه قولا وعملا، ومنهجا وسلوكا.

هذا هو التسبيح«لله» فما معنى أن يكون بحمده أو باسمه؟

إن هذا وأمثاله يشير إلى الباعث على التسبيح وإذا كان لفظ الجلالة داعية الإخلاص والخشوع والخضوع فإن الربوبية وما فيها من الرعاية والتوفيق والعناية بالمخلوقات مما يستحثنا إلى توحيد الله وإفراده بالألوهية والربوبية والتقديس والتنزيه، فحين سبَّحْتَ وسبَّحَ الكون من حولك إنما كان بحمد ربك، فتحمده حين وفقك لتسبيحه ، وأعانك على توحيده، وثبتك على طريقه، فهذا لون من ألوان تربيته لخلقه، وربوبيته لهم، وإقداره لهم على طاعته، وهذا أيضا ما نلمحه فى وصف الرب بأنه العظيم أو الأعلى، فلنسبحه ذاكرين اسمه، وذكر الاسم فيه

ذكـر للمسـمّى وهو الرب الموصـوف بالعظمة والعلو فـى كمـالهمـا ، وتوجيـه الخطاب[باسم ربك]فيـه فوق ذلك من القرب والـتشريف والتكريم للمـخاطب بهذا الخطاب مـا فيه وذلك كله مما يجعل المخـاطب بهذا يهرع إلى سـاحة مولاه، راجيا ضارعا باكيا منيبا منزها له عن كل صفة ذميمة وصفه بها المبطلون.

وإذا كان هذا هو التسبيح ، فماذا عن المسبِّح؟

فلنقرأ الآية مرة أخرى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ المسبح هو ما فى الـسموات وما فى الأرض، وإذا كانت « مـا» غالبا لغير العـاقل، وكانت« من » غالبا للعـاقل، فلماذا اختار«ما»؟ قـد يقال : إن ما لا يعقل إذا اختلط بمـن يعقل جاز أن يُعَبَّر عن الجـميع بـ«ما»، ولذلك قال سـيبويه: وأما« ما» فإنها مبهمة تقع على كل شئ [1] فما فى السموات وما فى الأرض يعم كل المخلوقات من الإنس والجن والملائكة والأفـلاك والبحار والأنهار، والـشجر والدواب، كل هذا الوجود سبح لله، ومـا زال يسبح، وكأنه حين اختار«ما» لـيفيد عمـوم المخلوقات أراد أن يعـيب على من لـم يسبح ربه وإلهـه من الإنس والجن، وأن يظهـره وكأنه نغـمةنشـاز فى هذا الكون، ويبـقى تسـبيح من لـم يعـقل على حـقيـقتـه بلغـة لا نعرفـهـا، أو هو من باب الدلالةعلى صـانعهـا، فكأنهـا تنطق بتـسبيـحه، يقـول الخازن:« والحق أن التـسبـيح هو القول الذى لا يصـدر إلا من العاقل العارف بالله تعالى: ومـا سوى العاقل ففى تسبيحه وجـهان :أحدهما :أنه يدل على تعظيـمـه وتنزيهـه، والثانى:أن جـميـع الموجودات بأسـرها منقـادة له، يتصرف فـيها كيف يشاء، فـإذاحملنا التسبيح المذكـور فى الآية على القول كان المراد بقوله:« مـا فى السموات» من فى الـسموات وهم الملائكة، والمسبـحون فى الأرض هم المؤمنون العـارفون بالله، وإن حـملنا التسـبيح على التـسبـيح المعنوى

---

(١)البحر المحيط لأبى حيان ١/ ٣٦٣.

فجميع أجزاء السموات وما فيها من شمس وقمر ونجوم وغير ذلك وجميع ذرات الأرض وما فيها من جبال وبحار وشجر ودواب وغير ذلك كلها مسبحة خاشعة لجلال عظمة الله جل جلاله، وتقدست أسماؤه وصفاته، منقادة له يتصرف فيها كيف يشاء[1].

وما قاله الإمام الخازن قال به كثير من الأئمة من أن تسبيح العقلاء باللسان والمقال، وتسبيح غيرهم بلسان حالها الذى ينطق بما اتصف به موجدها من الجلال والكمال:

وفى كل شئ له آية تدل على أنه الواحد

ولو تأملنا لعلمنا بأنه ليس من شرط التسبيح أن يكون كما تعودنا بلسان ينطق قائلا: سبحان الله ، وإنما هناك للمخلوقات لغة تتحدث بها لا نفقهها، وهذا هو الذى نلمحه فى قوله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾[2]. وهذا هو سليمان عليه السلام علمه الله منطق الطير فسمع النملة تنصح من معها قائلة: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾[3].

وحديثه مع الهدهد تذكره آيات سورة « النمل» فى أسلوب عذب جميل، كما هو شأن القران فى كل ما يذكر .

---

(١) الفتوحات الإلهية : للجمل ٤/ ٢٨٤، ٢٨٥.
(٢) الإسراء ١٧/ ٤٤.
(٣) النمل ٢٧/ ١٨ , ١٩.

وهذا داود عليه السلام يقول الله فيه:

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ (١).

ويقول﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾(٢).

وهذا رسول الله ﷺ كان يخطب فى مسجده واقفا على جذع نخلة، فلما صنع له المنبر وصعد عليه سمع من فى المسجد حنينا كحنين الطفل أو حنين الناقة لوليدها، ذلكم هو حنين الجذع لرسول الله ﷺ فنزل من على منبره فمسح الجذع فسكن وهدأ، وعند الدارمى: أن النبى ﷺ قال للجذع: إن شئت أن أغرسك فى الجنة فتشرب من أنهارها فيحسن نبتك وتثمر فيأكل منك أولياء الله ؟ فقال النبى ﷺ : اختار أن أغرسه فى الجنة! يقول ابن حجر: فى الحديث دلالة على أن الجمادات قد يخلق الله لها إدراكا كالحيوان بل كأشرف الحيوان، وفيه تأييد لقول من يحمل: وإن من شىء إلا يُسَبِّحُ بحَمدِه ـ على ظاهره » (٣)وقد كان الحسن إذا حدّث بهذا الحديث يقول: يا معشر المسلمين:الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقا إليه ، فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه.

ولنتأمل فيما أخرجه مسلم والترمذى عن جابر بن سمُرة رضى الله عنه أن رسول ﷺ قال: إن بمكة حجرا كان يسلم علىّ ليالى بُعثتُ، إنى لأعرفه الآن ، وروى الترمذى عن عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال:جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فقال:بم أعرف أنك رسول الله ؟ قال:إن دعوت هذا العذق من النخلة تشهد أنى رسول الله؟ فدعاه رسول الله ﷺ فجعل العذق ينزل من النخلة حتى سقط إلى رسول الله ﷺ وقال: السلام عليك يارسول الله ، ثم قال له

(١) سورة «ص» ٣٨ / ١٨ , ١٩.
(٢) سبأ ٣٤/ ١٠.
(٣) انظر : فتح البارى ـ شرح صحيح البخارى :لابن حجر ٦/ ٦٠٣ كتاب المناقب / باب علامات النبوة فى الإسلام.

الرسول :ارجع إلى موضعك، فعاد إلى موضعه والتأم ، فأسلم الأعرابى عند ذلك»[1] إلى غير ذلك من الأحاديث التى تبين أن لهذه المخلوقات لغة تعبر بها، وإحساسا خاصا بها، فهى عابدة لربها، ساجدة له، قانتة مطيعة، تسبح له لا بلسان حالها وإنما بلسان مقالها الذى لا نفقهه ولا نعرفه، إنما يعرفه من خلقها، ومن منحهم الله علما وفضلا من أنبياء الله ورسله،به يعرفون ويسمعون ويخاطبون هذه المخلوقات، وذلك كله دليل عزة الله التى لا تغلب، وحكمة الله التى أبدع بها مخلوقاته، ولهذا ختمت الآية بقوله: وهو العزيز الحيكم.

وهذا الختام قد ورد فى أول« الحديد»،وأول الحشر وآخرها وأول الجمعة فهذا ـ إذًا ـ ختام مقصود يؤكد صفتين لله فى هذا المقام هما صفتا العزيز ـ الحكيم **والعزيز :** القوى الغالب كل شيئ، أو هو الذى ليس كمثله شئ، أو كما يقول **الزجاج:** هو الممتنع فلا يغلبه شيئ[2].

والحكيم: هو الذى أتت أفعاله كلها على مقتضى ما خُلقت لأجله ، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾[3] وكما قال:﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[4].وهو الذى له الحكم فى خلقه، فهو الذى لايرد قضاؤه فيهم: ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ *سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾[5] وكل من هاتين الصفتين على صيغة« فعيل» وهى من صيغ

---

(١)رواه الترمذى ـ فى المناقب وفى سنده : شريك القاضى، وفيه كلام، ومع ذلك فقد قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح.

(٢) انظر : لسان العرب : لابن منظور ٤/ ٢٩٢٥.

(٣) السجدة ٣٢/ ٦, ٧.

(٤) النمل ٢٧/ ٨٨.

(٥) المؤمنون ٢٣/ ٨٨, ٨٩.

المبالغة، فلنقل هى صيغة تدل عى الكمال الذى يليق بالله رب العالمين، فعزته ليست كأى عزة، إنما هى عزة من لون فريد لا تشابهها عزة، وحكمته ليست كأى حكمة لدى خلقه، وهكذا كل أسمائه وصفاته جل وعلا، وهاتان الصفتان خبران لقوله«هو» فالجملة جملة اسمية، والجملة الاسمية تدل على الثبات والدوام، ولهذا سبحت الكائنات باسمه، وسجدت فى محرابه ، وتوجهت له بالحب والطاعة، وهذه المعانى كلها التى تفيض بها الآية الكريمة ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تجعلنا ننظر إلى من قعدت بهم هممهم عن الجهاد فى سبيل الله ، وقد كانوا متحمسين له، يطلبون من الله أن يدلهم على أفضل الأعمال ليقوموا بها رغبة فى حصول الثواب من ربهم ، فلما بين لهم أن أفضل الأعمال الجهاد فى سبيله تقاعسوا وقعدوا ، ننظر إلى هؤلاء ومن يقولون قولا ثم لا يوفون بما عاهدوا الله عليه نظرة تعجب من حالهم واستهجان لأفعالهم، وازدراء لسلوكهم،ومن هنا نفهم سر مجيئ قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ بعد قوله : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ إذ كيف يليق بمن آمن بهذا الذي سبح الوجود بحمده، واتصف بالعزة والحكمة أن يقول مالا يفعل؟

ولننظر فى الآيات فى ضوء الهدف الذى سيقت من أجله، والهدف من الآيات هو حث المؤمنين على الجهاد فى سبيل الله ، فهم حملة الرسالة الخاتمة، وبين أيديهم نور ربهم الذى ينير للناس الطريق ، ولن يتركهم أعداء الله يبلغون رسالة الله، فهؤلاء الأعداء:﴿يرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾(١) فهو بعزته وقوته وحكمته متم نوره ، وهو الذى سيجعل دين الحق يظهر وينتصر على الدين كله، وهو إنما يفعل ذلك ـ جل وعلا ـ وفق سنته فى خلقه أن يدفع الباطل بالحق: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(٢). يلقى محبته فى قلوب بعض عباده، يسخرهم لرفعة دينه، أو قل يصطفيهم من خلقه لنصرته ونصرة رسوله فضلا منه وكرما: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٣)وهؤلاء يدركون أن طريقهم ليس مفروشا بالورود، إنما طريقهم مليئ بالأشواك والعقبات والمتربصين والحاقدين والحاسدين ممن لا يعيشون إلا فى الظلام، فإذا ما أشرق صبح الحقيقة انكشف أمرهم، ولم يصلوا إلى غايتهم، ومن هنا جاءت الآيات تستحث الخطا، ترهّب وترغّب، وتدعو إلى إخلاص النية وصدق التوجه لله وبذل الجهد من أجله، والعمل دون كلل أو ملل، والجزاء من جنس العمل: تمكين فى الأرض، وعزة بين الخلق، وخلود فى جنات عدن، ذلك الفوز العظيم.

فلننظر إلى نور الله يشع من بين ثنايا وحروف وكلمات الآيات ولنتأمل فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ فهذا نداء يبدأ بـ « يا» وهى حرف نداء ينادى به البعيد، ولم يرد فى القرآن النداء إلا بهذا الحرف وهذا مما يلفت النظر، إذ كيف يُنَادى المؤمنون بهذا الحرف(٤)الموضوع لنداء البعيد وهم أولياء الله وخاصته، ولكنه أراد

---

(١) التوبة : ٩/ ٣٢، ٣٣.

(٢) البقرة ٢/ ٢٥١.

(٣)المائدة ٥/ ٥٤.

(٤) انظر :دراسات فيِ أسلوب القرآن الكريم : محمد عبد الخالق عضيمة ٣/ ٦٣٨.

أن يستثير عواطفهم وأن ينبـههم إلى أن من غفل منهم عن أوامر ربه فادعى مالم يستطع الوفـاء به، فكأنه فى منزلة البعـيد ، ولهذا جـاءت كلمة « أى» وهى اسم مبهم هو المنادى، و« ها» حرف تنبـيه، و« الذين آمنوا» صفة لـ « أى» وهو المنادى فى المعنى ، فكأنه يقـول: أيها المؤمـنون انتبـهوا ، وألقـوا سمـعكم وقلوبكم، ولا تنشغلوا عن ربـكم الذى تسبحـونه، وتعبدونه وتؤمنون بـه، وإلا فأنتم فى خطر عظيم، وقـد يكون النداء بـ«يا» من باب الاهتـمـام بالأمـر الذى ينادَى من أجله لأهميته وخطورته ومنزلته، فيدعى له من بعُـد فضلا عمن قرُب ، ولو تأملنا فيما نودى إليه المؤمنون لوجـدناه أمرا عظيمـا يستحق هذا الاهتمـام من قِبَل المنادِى والمنادَى وهو حـين يناديهم بهـذا الـنداء الموحِي يختــار لهم صـفــة من أعظم صفـاتهم، ألا وهى صفـة الإيمان وتوضع هذه الصفة فى صيغـة الفعل الماضى ، تذكيـرا لهم بما كان منهم يوم انشـرحت صدورهـم للحق، وأشرق فـيهم نور الله فأضاء جوانحـهم وقلوبهم وأرواحهم ، فأحسوا معه بالحـياة بعد الموت، وبالقوة بعد الضـعف ، وبالعزة بعـد الذلة وبالسعـادة بعد الشـقاء: ﴿أَوَ مَن كَـانَ مَـيْـتًـا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾(١) بهذا الوصف يناديهم ليستجيش مشاعر الإيمان فى قلوبهم ، فيدعوهم هذا إلى التأدب مع ربهم ، وحسن العمل لخالقهم.

وقد ناداهم بهـذا النداء الحبيب فى هذه السورة من سور المـفصل، والتى لم تتـجاوز آياتهـا الأربع عـشرة آية ثلاث مـرات:فى المرة الأولى: يلومـهم ويعاتبـهم وينكر عليهم أنهم عاشوا على أمل هو الحصول على أعظم الثواب لقيامهم بأعظم الأعمال وأحبها إلى خالقهم فـلما تحقق هذا لهم وبين لهم أن الجهاد فى سبيله هو أحب الأعمـال إليه، وحانت ساعـة الاختبار لم يسـتطع بعضهم الوفاء فـقال لهم ربهم:لم تقولون مالا تفعلون..الآية وما بعدها، وفى النـداء الثـانى : يـدلُّهم عـلى

---

(١)الأنعام ٧/ ١٢٢.

التجارة الرابحة فى الدنيا والآخرة فيقول:﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾ وفى النداء الثالث مع آخر آية فى السورة يناديهم ربهم ليقول لهم :«كونوا أنصار الله » فالإيمان هو العنصر الفاعل الذى يحرك المشاعر ويدعو إلى العمل المخلص وبقدر هذا الإيمان يكون العمل المثمر النافع:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾(١)

ولهذا لا عجب أن بقى القرآن ثلاثة عشر عاما فى مكة يغرس هذه الشجرة المباركة فى القلوب،لا يتطرق إلى شئ آخر من تفصيلات الحياة ، وفى المدينة خلال عشر سنوات ظل يرويها بغيث الوحى الطاهر إلى أن استقرت جذورها وبسقت أغضانها وآتت أكلها كل حين بإذن ربها : عزة وكرامة وسعادة وتمكينا لأهل الإيمان ومن هنا كان النداء الذى ينادى الله به عباده المؤمنين كلما أراد منهم أمرا أو أراد أن ينهاهم ويرشدهم فيقول: يا أيها الذين آمنوا ...

وبعد أن ناداهم بصفة الإيمان يقول لهم: لم تقولون مالا تفعلون ؟ وهو استفهام إنكارى توبيخي، يتوجه فيه حرف الاستفهام إلى الفعل المضارع «تقولون» مع أنهم قالوا قولا وهذا هو القرآن يعاتبهم وينكر عليهم أنهم لم يلتزموا به فكان مقتضى ذلك أن يكون السؤال: لم قلتم ففعلتم غير ما قلتم ؟ لكنه اختار «تقولون،تفعلون» ليرسم بين يديك صورة شاخصة متكررة فى سلوك يمكن أن يكون فى أى زمان وفى أى مكان فى حاضر ومستقبل الزمان ،وعلى اتساع المكان.. ليكون الإنكار على مثل هذه العادة الذميمة والخلق الوبيء الكريه الممقوت لإنسان مؤمن ، نعم هو مؤمن ، ولكنه خوّار ضعيف الإرادة لا يثت أمام أحداث الزمان ، ولا يلتزم بما قطع على نفسه من عهد ووعد فسرعان ما تخونه

(١)سورة إبراهيم ١٤/ ٢٤, ٢٥.

عزيمتـه، وتنتصر عـليه نفسـه ، وقد ذكر الله قـوما من بنى إسرائـيل كانوا من هذا القبيل الذى يضعف إذا ما ابتلى بالشـدائد وفيهم يقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾[1] إلى أن ذكر الله من أمرهم مع قائدهم و ملكهم ما ذكر فـقال: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [2] إلى آخر هذه القصة التى ترسم عـدة نماذج من أتباع موسى عليه السلام لنختـار نحن النموذج الأمثل ولنتـعلم الدرس ونأخذ العبرة وقـد سبق أن ذكرنا فى أسبـاب النزول أن هذا العتاب وذلك الإنكار كان حـين جلس صحابى جليل هو عبد الله بن سلام مع جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ يذكرون ما أفاء الله عليهم من نعمة الإسلام ، ويشـتاقون إلى جنة الملك العلام ، وهم يعلمون أن السبـيل إليها هو جلائل الأعـمال فليسألوا عن ذلك رسـول الله ﷺ فبيّن لهم أن سبـيل ذلك هو الجهـاد فى سبيل الله ، فلمـا كتب عليـهم القتال وكـانت موقـعة «أُحُد» حـدث من فريق منهم مـا حدث : «منكم من يريد الدنيـا ومنكم من يريد الأخرة ثم صـرفكم عنهم ليبتليكم» أو أن هناك فـريقا من شبـاب المسلمين كانوا يدّعون أنهم فـعلوا فى جهادهم لأعـداء الله كذا وكذا يقولـون قتلنا وطَعَنَّا ، ولم يحـدث منهم ذلك ، وهذا بعيـد لأن ذلك كـذب، والكذب لا يليق بأصحـاب

(١)البقرة ٢٤٦.
(٢) البقرة ٢٤٩.

رسول الله ﷺ ، وما روى فى ذلك لم يرو عن واحد من أصحاب رسول الله ﷺ إنما روى عن قتادة والضحاك ، ولذلك يقول ابن جرير: « ولو كانوا وصفوا أنفسهم بفعل مالم يكونوا فعلوه، كانوا قد تعمدوا قيل الكذب «أى قول الكذب» ولم يكن ذلك صفة القوم ، وقيل إنها نزلت فى جماعة من المنافقين كانوا يعِدُون المسلمين النصر وهم كاذبون ، فكأنّ الله يقول لهم يا من آمنتم بألسنتكم ولم تؤمن قلوبكم ، لم تقولون ما لا تفعلون ؟ يقول ابن جرير: «لوكانت نزلت فى المنافقين لم يسموا ولم يوصفوا بالإيمان» [1] فهذا إذن إنكار على من ضعفت قواهم من المؤمنين فلم يستطيعوا الوفاء بما تمنوا من أن يبذلوا جهدهم فى عمل عظيم يصلون منه إلى جنات النعيم .

وهذه الصورة التى ذكرتها الآية الكريمة صورة تتكرر فى التاريخ الإنسانى وإلى يومنا هذا وبعد يومنا هذا ، ترى أناسا فى لحظات صفاء نفس ، وانفعال إيمانى يعقدون العزم أن يفعلوا أعظم الأفعال، وأن يتقربوا إلى الله بأعظم الأعمال، وما هى إلا لحظات أو أيام معدودات حتى يفتر هذا الحماس ويتراخى هؤلاء فى تنفيذ ما قالوه، والإسلام لا يعرف هذا التناقض بين القول والفعل إنما يريد مؤمنا صاحب عزيمة قوية :

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأى أن تترددا

يقول تعالى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾[1].

إنها رجولة الإيمان وقوتها وصمودها هى التى جعلتهم هكذا: منهم من قضى نحبه، ووفى بعهده مع ربه فمات شهيدا ومنهم من يعيش على هذا الأمل

---

(١) جامع البيان : لابن جرير الطبرى جـ٢٨ ص ٨٥.
(٢) الأحزاب ٣٣/ ٢٣.

أن يحظى بالشهادة فى سبيل الله . فهو ينتظر هذا ويترقبه ويتمناه ، فهلْ يُهزمُ قوم يحبون الموت أمام قوم يحبون الحياة؟ ومن هنا تدرك لماذ اعزّ المسلمون فى عهودهم الأولى وسادوا ..

وقريب من صورة من يعقد العزم على أمْرٍ ثم لا يوفى به صورة من يحسن صناعة الكلام والوعظ والإرشاد للآخرين ولما ينتصح وقد قال الله ابنى إسرائيل: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾[1] وقال رسول الله ﷺ: يؤتى بالرجل يوم القيامة يلقى فى النار، فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحا، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون:يا فلان مالك ؟ ألم تك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟فيقول بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه»[2]والآية التى معنا فى سورة الصف، تنطبق على هذا أيضا، ويكون معناها: يا أيها الذين آمنوا لم تقولون «أى لغيركم» مالا تفعلون أنتم ؟ كما فهمنا معناها أولا: لم تقولون قولا، وتعِدُون وعدا، وتعاهدون عهدا لا تقومون بحقه، ولا توفون به؟وتنفيراً من هذا السلوك المشين يأتى قوله تعالى:**﴿كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون﴾** وكأن سائلا سأل عن سبب هذا الإنكار على من قال مالم يفعل، وما جزاؤه ؟ فجاء الجواب:كَبُرَ مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون، وهو لون من التعبير القرآني:حين يأتى الجواب مبنيا على سؤال يسأله من يوجه إليه الحديث ومن يستمع إليه ، فإنه بذلك يقع فى النفس كل موقع .

وتأملْ معى كيف عبّرت الآية عن هذا السلوك :إنها اختارت كلمة « المقَتْ» و«المقت» أشد البغض وقال ابن عطية، المقت :البغض من أجل ذنب أو ريبة أو دناءة يصنعها الممقوت ، وقال المبرد : رجل ممقوت ومقيت إذا كان يبغضه كل

---

(١)البقرة ٢/ ٤٤.

(٢) متفق عليه .

أحد.. ولذلك جاء «المقت» وصفا ذميما لفعل من أفعال الجاهلية ذلكم هو زواج الابن من زوجة أبيه بعد وفاته، حتى كانوا يسمونه «زواج المقت». وفى هذا يقول تعالى: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا﴾ (١) وورد ذمًا شديدا لسلوك الكافرين حيث كانوا يجادلون فى آيات الله بغير حجة ولا دليل يريدون إطفاء نور الله فقال تعالى: ﴿الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾(٢)، وذمًا أيضا لكفر الكافرين قال الله تعالى: ﴿فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا﴾ (٣)، وإذا كان الكافرون حين تنكشف لهم الحقيقة ويرون يوم القيامة ما كانوا فيه من الباطل يمقتون أنفسهم ويحتقرونها فإن احتقار الله لهم ومقته لهم أكبر من مقتهم أنفسهم كما قال تعالى: ﴿إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون﴾(٤)، فإذا جاء هذا المقت وهو على هذا النحو فى استعمالات القرآن - وصفا وذما لسلوك لا يليق بالمؤمنين عرفنا مدى ما فيه من تنفير لهم. وهل يرضى مؤمن لنفسه أن يوصف بأوصاف هى من صفات المشركين والكافرين؟ فإذا ما كان هذا الوصف كبيرا، وكان «ذلك عند الله»عظم الأمر وبلغ غايته. ولندع الآيتان تعبران عن ذلك كله حيث يقول ربنا: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾.

وقد جاء المقت تمييزا «لكَبُر»، والفاعل «أنْ وما دخلت عليه »أى كبر مقتا

---

(١)النساء ٤/ ٢٢.
(٢) غافر ٤٠/ ٣٥.
(٣) فاطر ٣٥/ ٣٩.
(٤) غافر ٤٠/ ١٠.

عند الله قولكم مـالا تفعلون . ويمكن أن يكون كـبر من باب «بئس» فـيه ضمـير مُبْهَم مفسر بالنكرة بعده و«أن تقـولوا» هو المخصوص بالذم . وفى هذه الصياغة مـا يدل على أن المقت شـديد خـالص فى بابـه متـمكـن كل التـمكن من هؤلاء المخالفين، وزاد الأمر ترهيبا اختيـار «عند الله» فالعندية هنا لها مغزاها ومعناها.إذ هى تعنى الاهتمام والعنـاية بذلك، ولفظ الجلالة المستجمع لكل صـفات الكمال يلقى الرهبة والخوف فى القلوب.

وبعد أن رهَّب وخوَّف كأنهم تساءلوا عـما يحبه ربهم ويرضاه لهم ويرضي به عنهم ليفـعلوه فيما يستـقبلون من أيامهم ولعل الله يغفـر لهم فيما قصـروا فيه فعوتبوا هذا العتاب الشديد من أجله، فقال تعالى :﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ والآية تبدأ ملبية لهذا التساؤل لتكون أدعى إلى القبـول وأوقع فى النفس، ومع كل كلمـة فيهـا هيا لنقـتبس من نور الله :إن: حرف توكـيد ، ولفظ الجـلالة اسمـها وجملة «يحب الـذين يقاتلون فى سبيله» خبرها ، فـهذه جملة إسمية تدل على أن هذه الحـقيقة لا تتغيـر ولا تتبدل ، وهى حقيقة مؤكدة ليست مـجالاً للشك ولا للارتياب، واختيار لفظ الجلالة ،«الله» فى هذا الموضع كـما جـاء فى مطلع السـورة وفى الآية الثالـثة وهنا فى الآية الرابعـة لتربية المهابة فى القلوب ، وإذا كان الخبـر وصفا فى المعنى ، فقد وصف الله نفسه بأنه يحب الذين يقاتلون فـى سبيله صفـا ، ومحبة الله لهم صـفة لله نثبتـها له دون تشبيـه أو تمثيل أو تعطيل. كـما نثبت مـا يترتب عليـها من إكـرام من يحبـهم وإثابتهم أعظم الثواب ومن ذلك ما جاء فى الحديث القدسى الذى رواه البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه إذ قـال :قال رسـول الله ﷺ : يقول الله تعـالى : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحـرب، وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ من أداء ما افـترضته عليـه ، ولا يزال عبدى يتقـرب إلىّ بالنوافل حتى أحبـه فإذا أحببـته

كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى عليها ، ولئن سألنى لأعطينه و إن استعاذ بى لأعيذنه، وفى رواية له عن أنس : فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى » (١)والآيات والأحاديث فى محبة الله لعبده أو عمل من الأعمال الصالحة، ومحبة العباد لربهم كثيرة ، وكلها تثبت هذه الصفة: صفة المحبة لله وأنه كما قال فيمن اختارهم لنصرة دينه : «يحبهم ويحبونه »وقد روى الترمذى عن أبى الدرداء رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : كان من دعاء داود عليه السلام : «اللهم إنى أسألك حبك وحب من يحبك ، والعمل الذى يبلغنى حبك ، اللهم اجعل حبك إلىَّ أحب من نفسى وأهلى ومن الماء البارد، ومن دعاء رسول الله ﷺ : اللهم ارزقنى حبك وحب من ينفعنى حبه عندك ، اللهم ما رزقتنى مما أحب فاجعله قوة لى فيما تحب وما زويت عنى مما أحب فاجعله فراغا فيما تحب ـ رواه الترمذى . وفى بعض الكتب المنزلة : عبدى أنا ـ وحقِّك ـ لك مُحبٌ ، فبحقى عليك كن لى محبا » وكيف لا يحب العباد ربهم ، وهو خالقهم ورازقهم وإلههم الذى عرفوه فأحبوه وعبدوه، يقول يحى بن معاذ فى ضراعاته :«إلهى إنى مقيم بفنائك ، مشغول بثنائك ، صغيراً أخذتنى إليك ، وسربلتنى بمعرفتك ، وأمكنتنى من لطفك ، ونقلتنى فى الأحوال ، وقلبتنى فى الأعمال ، ستْراً وتوبة وزهداً وشوقا ورضا وحبا، تسقينى من حياضك، وتهملنى [أى تتركنى] فى رياضك، ملازما لأمرك ، ومشغوفا بقولك، ولما طرّ شاربى [أى نبت] ولاح طائرى ، فكيف انصرف اليوم عنك كبيرا وقد اعتدت هذا منك صغيرا فلى ما بقيت حولك دنْدنةٌ وبالضراعة إليك همْهمةٌ لأ نى محب، وكل محب بحبيبه مشغوف وعن غير حبيبه مصروف(٢).

---

(١) رواه البخارى .

(٢)انظر : إحياء علوم الدين : للإمام الغزالى ٤/ ٢٩٦.

بقى أن نعرف سر استعمال الفعل المضارع «يحب»فى هذا الموضع، وماذلك إلا ليدلنا على أن هذه المحبة مواكبة لكل حـركة وسكون للمجاهديـن فى سبيل الله ، فهم من لحظة توجـه قلوبهم إلى لقاء عـدو الله وعدوهم ، إلى استـعداداهم بالتدريب والتـجهيز وخـروجهم مع إخوانهم ، وخوضـهم غمار المعركـة، ثم ما يكون من إحدى الحسنيين إما نصر وإما شهادة وما يكون بعدها من جنات النعيم وثواب عظيم ، فى كل ذلـك يحظى المجـاهدون بهذا الحـب العظيم من الله الذى عرفوه فـأحبوه ولنقرا فى ذلك كـثيراً من الآيات والأحاديث.يقـول تعالى :﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

ويقول﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(٢).

وروى مسلـم وغيره عن أبى هـريرة رضى الله عنه قال : قـال رسول الله ﷺ: تضـمن الله لمن خـرج فى سـبيله لا يخـرجه إلا الجـهـاد فى سـبـيلى وإيمان بى وتصديق برسلى فهو ضـامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى منزله الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة والذى نفس محمد بيده، ما كلْم يُكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كُلِمَ«أى جُرح» لونه لون دم ، وريحه ريح مسك، والذى نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو

(١) آل عمران ٣/ ١٦٩ ، ١٧٠ , ١٧١.
(٢) التوبة ٩/ ١١١.

فى سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفو عنى، والذى نفس محمد بيده:لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » وروى البخارى ومسلم عن سهل بن سعد رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺقال:«رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها، والروحة يروحها العبد فى سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما فيها» وروى البزار بسنده عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ ليلة أسرى به أتى على قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم كلما حصدوا عاد كما كان فقال: يا جبرائيل من هؤلاء ؟ قال: هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله تضاعف لهم الحسنات بسبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شئ فهو يخلفه»إلى كثير من هذه اللمحات النورانية التى تبين كيف أن الله يحب المجاهدين فى سبيله فى كل لحظة من لحظات حياتهم فى مقام الجهاد.. وهو ـ كما رأينا ـ ما يعبر عنه الفعل المضارع «يحب» .

ومما يرغب فى الجهاد اختيار اسم الموصول فى بداية «الذين يقاتلون فى سبيله صفا » إذ يمكن أن تكون الآية هكذا :«إن الله يحب المقاتلين فى سبيله صفا» لكنه عدل عن ذلك إلى ما نراه من استعمال اسم الموصول تعظيما وتفخيما لأمر هؤلاء المجاهدين.

ولكن لماذ اختار كلمة« القتال»دون «الجهاد» ووضع هذا فى صيغة الفعل المضارع ـ يقاتلون ـ وجعل هذا القتال فى سبيله ،وذَكَر ما يكون عليه حال هؤلاء المقاتلين كما قال : صفا كأنهم بنيان مرصوص؟

وإنما اختار كلمة القتال دون الجهاد. لأن القتال يعنى معركة تدور رحاها بين قوتين : الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت. والدخول فى المعركة هو الاختبار الحقيقى لإيمان المؤمن ؛لأنه يعنى

التضحية بالنفس وهى أغلى ما يمتلك الإنسان، وهذا أمر يحتاج إلى إيمان من لون فريد ، إيمان لا يلين ولا يهون ولا يتزعزع ، يجعل صاحبه يلقى بنفسه فى أتون المعركة لا يبالى عدوا مهما بلغت قوته، فهذا المجاهد قَدَرُ الله الذى لايرد، ويده التى تعمل، ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ (١)، أما الجهاد فمع ما تحمله الكلمة من تحمل المشقة ومن مجالدة العدو، إلا أن الجهاد كما يكون بقتال أعداء الله يكون بإعداد المجاهدين وتجهيزهم، وبناء أمة الإسلام أمة قوية مرهوبة الجانب مسموعة الكلمة كما يكون بمجاهدة أعداء الإسلام بالكلمة المسموعة والمقروءة والمرئية لإظهار دين الله ، ونشر رسالته وإعلاء كلمته يقول رسول الله ﷺ :«جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»(٢) وفى هذا نقرأ الآيات الكثيرة والأحاديث الشريفة يقول تعالى : ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٣).

ويقول: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٤).

وفى سورة الصف سوف نصل بإذن الله تعالى إلى قوله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(١) التوبة ٩/ ١٤ , ١٥.

(٢) رواه أبو داود ، والنسائى ، وأخرجه الدارمى فى سننه ، وأحمد فى مسنده، وصححه ابن حبان ، والحاكم ..

(٣) النساء ٩٥.

(٤) التوبة ٤١.

وفى الجهاد بالكلمة نقرأ قول الله تعالى :﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً * فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[1] أى جاهدهم بالقرآن جهاداً كبيرا يتناسب مع رسالتك وعظمها وما فيها من مسئوليات جسام لأنها رسالة عالمية لكل البشر بل للثقلين من الإنس والجن ، هكذا سبقت كلمة الله فقد قال قبل هذه الآية:﴿لو شئنا لبعثنا فى قرية نذيراً ﴾، فتخف مسئوليتك ، ولكنا جعلناك رسولا للعالمين ، وفى مطلع السورة : سورة الفرقان قوله سبحانه﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾[2] وجهاد النبى ﷺ للكافرين بالقرآن بإقامة حجته وبيان تعاليمه ، وقراءة آياته ، ونشر شريعته وإعلاء قدره، وهذا لون من الجهاد عظيم . وبه غزا القرآن القلوب وانتشر نوره فى كل مكان ، وما كان الجهاد بالقتال إلا لإسقاط معاقل الظلم وفتح الطريق للقلوب والعقول والأسماع لتسمع هذا القرآن ، فلما سمعت إليه لبت دعوته وأجابت النداء، وانتشر الإسلام فى الخافقين وعم نوره أرجاء الأرض يقول العلامة الألوسى: ويستدل بالآية على عظم جهاد العلماء لأعداء الدين بما يوردون عليهم من الأدلة ، وأوفرهم حظا المجاهدون بالقرآن منهم "[3] فالحمد لله على ذلك حمداً كثيرا.

ومن هنا يتبين لنا لماذا اختار التعبير بالقتال هنا فى سورة الصف، وما ذلك إلا لأن القتال هو المحك العملى لمن يطلبون ويسألون ويتمنون عملاً عظيما يصلون به إلى مرضاة الله عز وجل . وقد يحسن المؤمن الحديث عن الجهاد ويدعو إليه، وقد يكون صاحب لسان زَلِق يشرح ويبين للناس ما جاء به كتاب الله من هداية ، وهذا كما ذكرنا لون من الجهاد، وقد يكون المؤمن صاحب مال فيجود بماله فى وجوه الخير ، ويكون عونا للمجاهدين فى جهادهم بإعداد القوة

---

(١) الفرقان ٢٥ / ٥١ , ٥٢..

(٢) الفرقان ٢٥ / ١

(٣) روح المعانى : للألوسى ١٩/ ٣٣.

لإرهاب عدو الله وعدو المؤمنين كما قال تعالى :﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾(١) ولكن هذا المؤمن إذا دعى للانخراط مع جند الله للقاء أعداء الله فى ساحات الوغى ربما خانته عزيمته، وجبن عند لقاء العدو ، وقد جاء فى الحديث . قيل لرسول الله ﷺ : أيكون المؤمن جبانا؟ قال :نعم. فقيل له :أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال : نعم. فقيل له: أيكون المؤمن كذابا؟ فقال: لا(٢) .

والقرآن يسوق هذه المعانى التى تحملها كلمة: القتال فى صيغة الفعل المضارع «يقاتلون »، ليبين لنا أن هذا القتال لم يكن فى زمن مضى وانتهى إنما هو قتال متجدد. كلما دعا داعى الجهاد لبوا دعوته، وانطلقوا يحملون أرواحهم على أكفهم يجودون بها فى سبيل الله .

وفى الحديث عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : من خير معاش الناس لهم رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله يطير على متنه، كلما سمع هيعة أو نزعة طار على متنه يبتغى القتل أو الموت مظانه» (٣).

وأمثال هؤلاء لا تغلبهم الدنيا بزينتها وزخرفها ومناصبها.كما قال رسول الله ﷺ:(طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه فى سبيل الله أشعث رأسه، مغبرة قدماه ، إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة ، وإن كان فى الساقة «أى فى مؤخرة الجيش» كان فى الساقة، وإن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفّع)(٤)فهؤلاء المجاهدون خرجوا لاهَمَّ لهم إلا نصرة دين الله ، والكثير منهم يستخفون عن الناس ببطولاتهم حتى لا يتسرب إلى قلوبهم الرياء وحب الذكر وحسن

(١) الأنفال :٨/ ٦٠.

(٢)رواه مالك فى الموطأ، قال أبو عمر بن عبد البر.لا أحفظه مسندا من وجه ثابت، وهو حديث حسن مرسل .

(٣) رواه مسلم والنسائى .

(٤) رواه البخارى .

السمعة ، إلى أن يصلوا إلى غايتهم ويفوزوا بالشهادة فى سبيل الله وهذا سيجعلنا نقف عند قوله «فى سبيل الله» فنعرف لماذا كان لابد أن يكون القتال و الجهاد فى سبيل الله: أى من أجل إعلاء كلمته، والتمكين لدينه؟ وماذلك إلا لتحرير الإرادة المؤمنة من كل غرض من أغراض الدنيا وعرض من أعراضها وبدون هذا لا يتم النصر، وإن تم فلا خير فيه، لأن الغرض الذى من أجله كان القتال مادام لغير الله فسوف يلوث بهوى النفس وحب الدنيا. وسوف يكون النصر معينا للمنتصرين على تحقيق أهوائهم، والويل لأمة يتمكن فيها أصحاب الأطماع من رقاب العباد وهنا يكون البلاء والخراب والدمار والفساد. ولهذا جاءت الآيات والأحاديث تحدد الدوافع لقتال المؤمنين وجهادهم ، وأن هذه الدوافع يلخصها قوله «فى سبيل الله » تلك الكلمة التى نراها تذكر مع كل مراحل الجهاد ، من الهجرة إلى تحمل الإيذاء إلى الإنفاق إلى القتال حتى لا يختلط الجهاد فى أى مستوى من مستوياته وأى مرحلة من مراحله بأى غرض آخر غير الإخلاص الكامل لله ترى ذلك فى الهجرة ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾(١) ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾(٢) وفى الإنفاق نقرأ قول الله تعالى :﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (٣) وقوله:﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ

(١) الحج ٢٢/٥٨.
(٢) آل عمران ١٩٥.
(٣) البقرة ١٩٥.

عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(١)وفى الجهاد والقتال ذكرنا كثيرا من الآيات وكلها ترتبط وتشترط أن يكون ذلك لله وفى سبيله ومن أجله .

يقول تعالى: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(٢)

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾(٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(٤).

وهذه أحاديث رسول الله ﷺ توضح هذه الحقيقة: عن أبى هريرة رضى الله عنه أن أعرابيا أتى النبى ﷺ فقال: يارسول الله: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل لُيذكر،، والرجل يقاتل ليُرى مكانه فمن فى سبيل الله؟فقال رسول الله ﷺ: من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .رواه البخارى ومسلم .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رجل :يارسول الله إنى أقف الموقف أريد وجه الله ،وأريد أن يُرى موطنى، فلم يردّ عليه رسول الله ﷺ حتى نزلت:فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا. رواه الحاكم وقال :صحيح على شرط الشيخين، وروى النسائى عن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيتَ رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ماله؟ فقال رسول الله ﷺ لا شيئ له، فأعادها ثلاث

---

(١) البقرة ٢/ ٢٦١، ٢٦٢.
(٢) النساء ٧٤.
(٣) النساء ٧٤ ٨
(٤) المائدة ٥٤ .

مرات، يقول رسول الله ﷺ لا شيئ له ثم قال: إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا ويبتغى به وجهه. إلى غير ذلك من الأحاديث التى تبين أن الجهاد والقتال ليحقق غايته من تمكين أهل الحق، ونصرة دين الله لابد أن يكون لله وفى سبيله.

كما أن هناك شرطا آخر مع هذا الإخلاص ذلكم هو الطريقة التى سيكون عليها قتال المجاهدين فى سبيل الله، إنها كما قال ربنا: **﴿صَفًّا كأنهم بنيان مرصوص﴾** فالقوى المبعثرة، المتفرقة غير المنظمة مصيرها الهزيمة والفشل مهما تحلَّى أصحابها بالصدق والنية الخالصة، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1] وتبقى الصورة التى ترسمها كلمات هذه العبارة: «صفا كأنهم بنيان مرصوص»، لنرى كلمة «صَفًّا» أى صافين أنفسهم أو مصفوفين ،ترسم صورة للمجاهدين وقد تراصوا فى صفوف منتظمة محكمة كل منهم عرف مكانه وموقعه وفى ترابط هذا الصف وقوته ومكانته وثباته يأتى هذا التشبيه «كأنهم بنيان مرصوص» ومعنى مرصوص أي معقود بالرصاص ، وقال المبرد: رصصت البناء لاءمتُ بين أجزائه وقاربته حتى يصير كقطعة واحدة. وقد ضرب رسول الله ﷺ مثلا للمؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم بالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر[2]، وشبههم فى تعاونهم وترابطهم وتآخيهم بالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، وهذه الصورة التى ترسمها كلمات الآية وهذا التشبيه تصلح أن تكون رسما للمجاهدين وهم يقاتلون أعداء الله فهم فى ثباتهم وقوتهم كالبنيان الذى أحكم بالرصاص وكل وسائل التثبيت والتدعيم،

(١) الأنفال ٤٥، ٤٦.

فهم يتحركون فى أرض المعركة كالسيل الجارف الذى لا يثبت أمامه شئ . كما يمكن أن تكون بيانا لقوتهم فى اجتماع الكلمة وتوحدها وأنهم على قلب رجل واحد ، وكلا الأمرين مطلوب فى جهاد المسلمين لعدوهم فهم فى الجهاد عابدون لله ووقوفهم فى الميدان كوقوفهم فى الصلاة. يسوون صفوفهم ويسدون الفرج ولا يتقدم أحد فى الصف ويقودهم إمامهم . وهكذا فى ميدان المعركة هم على هذا الحال، وهم فى محبتهم وموالاتهم لبعضهم وطاعتهم لأمرائهم، وحرصهم على نصرة دينهم من القوة والمتانة كالبنيان المرصوص، وليتنا نفقه عن الله ما يقول ، فنخلص النية لله فى جهاد عدونا، ونبنى أمتنا أخلاقيا وعلميا وعسكريا واقتصاديا ، ونزرع الحُبَّ فى القلوب وننزع الحقد والحسد وحب الدنيا، ونقبل على الله طائعين منيبين لنحظى بمحبة الله ونصره ، فاللهم هيئ لنا من أمرنا رشدا برحمتك يا أرحم الراحمين .

وما زالت توجيهات القرآن تتوالى تحذيرا للمؤمنين وبيانا لما كان عليه غيرهم من الأمم السابقة، وموقعهم من هذه الأمم ، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الآية وما بعدها من الآيات .

أى اذكر للمؤمنين ما كان من أمرموسى عليه السلام مع قومه، وما حل بهم من غضب الله ومقته حين انحرفوا عن الطريق وضلوا سواء السبيل ، وتلك سنته التى لا تتخلف: يرسل رسله بالهداية فمن قبلَهَا قبِلَه الله ووفقه وزاده هداية : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾، ومن عاند وكابر وتولى بركنه، ولم يُقبل على دعوة الحق أعمى الله بصيرته وأمده فى ضلالته وطمس قلبه فكان من الخاسرين، والآية تلخص فى إيجاز ما كان من أمر موسى مع قومه ، وما وصلوا إليه فى النهاية، ولعلنا نلمح حرص موسى على إيمان قومه، حيث

يناديهم مستثيرا عواطف القرابة والدم ولهما حقوق يجب أن تؤدى فيقول: «ياقوم» ويسألهم سؤل إنكار وتوبيخ «لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم»؟ فهم يعلمون كل العلم أن موسى رسول جاءهم من الله ليرشدهم إلى طريق السلامة والنجاة فى الدنيا والآخرة، فهو إذن، لا يأمرهم بما يأمرهم به ولا ينهاهم عما ينهاهم عنه من عند نفسه إنما هذا وحى الله الذى أوحاه إليه وكل ذلك من أجل عزتهم وسعادتهم ، فإيذاء موسى إيذاء لله جل وعلا ، ولعلنا نلمح شيئا من هذا الإيذاء فيما قصه القرآن علينا من مواقفهم مع نبيهم من أول عهدهم إلى أن ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ، فهم الذين قالوا :أرنا الله جهرة، ومع مارأوا من الآيات البينات والمعجزات الباهرات لم يخلصوا عبادتهم لله . وحين أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم « قالوا يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة» وبعد أن أكرمهم الله ورزقهم من الطيبات وأنزل عليهم المن والسلوى قالوا يا موسى ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها» وكم فى قصة البقرة التى أمروا بذبحها ليأخذوا عضوا منها فيضربوا به رجلا قتِل ولم يُعرَف قاتله، لتعود إليه الحياة ويخبر عمن قتله كم فى هذه القصة من دلالات على مواقفهم المخزية من أوامر الله ومن نبى الله موسى عليه السلام، ولعلنا نذكر ما كان من أمرهم مع هارون عليه السلام حين ذهب موسى لميقات ربه. وكيف أصروا على عبادة العجل ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾(١).

ولقد اتهموه بأنه مصاب بالبرص أو بآفة خطيرة فى جسده ولكن الله برأه حيث كان يغتسل وقد وضع ثيابه على حجر فجرف تيار الماء الحجر فأخذ ثيابه فتبعه

---

(١) طه ٩٠ ، ٩١.

حتى انتهى إلى ملأ بنى إسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله ، ووقف الحجر فأخذ ثيابه فلبسها فذلك قوله تعالى :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ (١)ويدخل فى الإيذاء اتهامهم له بقتل هارون فبرأه الله من ذلك، وتاريخهم كله سلسلة من الكيد والإيذاء .

ولعل هذا هو ما نلمحه فى اختيار المضارع « تؤذوننى» دون آذيتمونى ، ففيه استحضار لصورة هؤلاء القوم وهم يواصلون إيذاء هذا الرسول الكريم الوجيه عند الله وفى هذا تحذير للمؤمنين ولغيرهم من إيذاء رسول الله ﷺ وقد رأينا فى الآية التى ذكرناها هذا التحذير ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ ونراه فى قوله : ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢).

وفى قوله تعالى :﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾(٣) إلى غير ذلك مما جاء فى كتاب الله .

ومما يزيد فى جُرم بنى إسرائيل علمهم بأن موسى عليه السلام رسول من الله إليهم قال تعالى :﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ «فإن العلم برسالته يوجب تعظيمه ويمنع إيذاءه، لأن من عرف الله وعظمته عَظَّم رسوله»(٤) وهذه الجملة:حال، و«قد» حرف تحقيق مع أنها داخلة على الفعل المضارع«تعلمون» لأنه فى حكم الماضى ، وإنما عبر به استصحابا للحال، أى قد علمتم منذ بعثت إليكم، وما زلتم تعلمون أنى رسول الله إليكم، وقوله:أنى رسول الله إليكم: فى

(١) الأحزاب ٦٩.
(٢) التوبة ٦١.
(٣) الأحزاب ٥٧.
(٤) تفسير : الفتوحات الإلهية : للعلامة : الجمل ٤/ ٣٣٦.

بدايتـها«أنَّ» وهى حـرف تأكـيد ، و«رسـول الله» تعنى أنه مـبـعوث من قـبل الله المتصف بكـل صفات الكمـال والجلال، فمـا جاء به من الأوامـر والنواهى، وما يشاهدونه من المعـجزات الباهرات والآيات البـينات ، كل ذلك من عند الله الذى أرسله ، فكيف يرد قوله، بل كـيف يستقـبل هذا الخير بالشر والتـجهم والإيذاء؟ ولو أمعنا الـنظر فى قوله«إليكم» لرأيناها تبين الحكمـة فى إرساله لنبـيه، وكـأنها تقـول: إنى رسول الله أرسلنى من أجلكم، لمـصلحتكم، لإرشـادكم إلى الطريق الأقوم،لإنقاذكم من وهدة الضلالة، وحمايتكم من أنفـسكم وما فيها من ضعف وشهـوات، ومن شيـاطين الجن والإنس الذين يصدونكـم عن السبيل، فـهل من جاء بهـذه السعـادة والكرامة لكم يسـتحق منكم الإيـذاء ؟ولكن القوم عـميت بصائرهم، وانحرفوا عن طريق الحق:﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، والزيغ: هو الانحـراف عن الحـق، وكلمـة الزيغ توحـى بأن الانحـراف كـان عن عـمـى فى البصـيرة ، وهوى سـيطر على القلب والجـوانح أفقد هـؤلاء صوابهم وعقـولهم فمـالوا عن الطريق الصحـيح وتاهوا فى متـاهات الباطل ووقعـوا فريسـة سهلة للشياطين، ولهذا عاملهم الله بما اختاروه لأنفسهم فأزاغ قلوبهم بما له سبحانه من سلطان على القلوب فـإنهـا كمـا يقول رسـول الله ﷺ« القلوب بين أصبـعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء» وهذا كقوله تعالى : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾(1).

ولهذا وجدنا من فى قلوبهم زيغ يتتبعون الآيات التى يوهم ظاهرها اشتباها ليثيـروا بها الفتن وليصرفوا الـناس عن الله ، قال تعالى:﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ

---

(1) النساء ١١٥.

زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ ﴾(١) أما المهتدون بهدى الله ، المؤمنون الإيمان الحق فهم كما قال ربنا: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ * رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ * رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾(٢).

وقوم موسى كانوا من أصحاب القلوب ا لمريضة زاغوا عن الحق فأزاغ الله قلوبهم ،والله لا يهدى القوم الفاسقين ، وهداية الله نوعان: هداية دلالة وإرشاد وبيان، وهذه هى التى أرسل بها الرسل وأنزل لها الكتب، وهى عامة لكل البشر، وهداية توفيق لمن أراد الله هدايته على ما سبق به علمه، وهى التى يُلِحّ فى طلبها المؤمنون حين يقولون فى كل ركعة من صلاتهم وهم يقرأون الفاتحة: اهدنا الصراط المستقيم ، والله برحمته يمنحها للمتوجهين له بالعبودية والطاعة، كما قال سبحانه :﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾(٣) أما من فسق عن أمر ربه وخرج عن طاعة مولاه فهو محروم من هذه الهداية: كما نرى فى قوله:«والله لا يهدى القوم الفاسقين »فهذه حقيقة يذكرها المولى فيدخل فيها قوم موسى دخولا أوليا، أو المراد بالفاسقين قوم موسى وأظهر فى مقام الإضمار ذما لهم بهذه الصفة الذميمة وبيانا لسبب عدم هدايتهم .

وبعد أن ذكَّر بما كان من موسى مع قومه من بنى إسرائيل، وما كان منهم من إيذاء له، وانحراف عن الطريق الرشيد، وما عاقبهم الله به من حرمانهم من الهداية، حتى ينالوا جزاءهم بفسوقهم وانحرافهم ها هو ذا يذكّر بما كان من

---

(١) آل عمران ٧.
(٢) آل عمران ٧ـ٩.
(٣) سورة محمد ١٧.

عيسى عليه السلام مع هؤلاء القوم، وما وقع منهم من رفض لدعوته فيقول: وإذ قال عيسى ..الآية ، وفيما ذكره الله من ذلك تسلية لرسول الله ﷺ ، فقد كان صلوات الله وسلامه عليه يحزن ويتألم إذا ما رأى انصراف بعض الناس عما جاء به من خير لهم وسعادة فى الدنيا والآخرة سواء كان ذلك من المشركين وغيرهم من المعاندين لرسالته أو من بعض المؤمنين الذين يقعون فى أخطاء ما كان ينبغى لهم أن يقعوا فيها. كما نرى فى حال هؤلاء المؤمنين الذين يقولون ما لا يفعلون، فلنقف عند الآية الكريمة نقتبس منها بعض ما فيها من أنوار: فهى تبدأ بحرف العطف لتجمع بين القصتين :قصة موسى وقصة عيسى عليهما السلام، وبعد حرف العطف تأتى كلمة «إذ» وهى معمولة لفعل محذوف تقديره:«اذْكُرْ» فهى دعوة إلى التذكير والتأمل والاعتبار للمرة الثانية فيما وقع لهذا النبى الكريم عيسى عليه السلام. وكثيرا ما يذكر عيسى فى القرآن بأنه ابن مريم، وفى هذا بيان لقدرة الله التى لا تحتاج إلى ما عرف الناس من أسباب فى عالم التوالد بين الذكور والإناث. فقد خلق الله آدم من تراب وخلق من آدم حواء وخلق عيسى دون أب بكلمة منه ، ولذلك قال :﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(1) فهو عليه السلام ابن مريم وليس ابن الله ، وليس هو الإله، فسبحان من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، فماذ قال عليه السلام ؟ قال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ فهو يناديهم بقوله:« يا بنى إسرائيل» استعطافا لهم وحثا لهم على الانضواء تحت لواء دعوته، فإنهم أبناء النبى الصالح والرسول الكريم يعقوب عليه السلام. ويعقوب هو إسرائيل وإسرائيل معناه هنا عبد الله «ويعقوب» هو ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم

---

(1) آل عمران ٥٩ .

جميعا السلام.ومن كـان من نسل هذا النبى يجب أن يقتفى أثره وأن ينهج نهجه وكـما قـال موسى :«إنى رسـول الله إليكم»قـال عيـسى كذلك:« إنى رسـول الله إليكم»، وقد وقفناعند هذا القول فرأينا ما فـيه من دعوة للإيمان بقائله: فهو يذكر لهم أنه «رسول »أى مبعوث من قبل من أرسـله، ومعه دليل صدقه بما جاء به من مـعـجزات ظـاهرات تدل على ذلك، والذى أرسله هو «الله» وفى اخـتـيـار لفظ الجـلالة «الله» ما يـدعو إلى المهـابة والخـوف، ومـا يرشد إلى الثـقـة فى المرسَل والإطمـئنان إلى من أرسله، وهو كـما قـال :رسـول الله إليكم» ، أى من أجلكم ولصالحكم ولإنقاذكم من وهدة الضلالة إلى أفق الهـداية ، فهل من كان كذلك ترد دعوته ،وترفض رسالته؟ وتأكيدا لدعوته، يبين لهم أنه ليس بدعاً من الرسل، وأنه جاء مـصدقـا لما بين يديه من التـوراة ومبشـرًا برسول يأتـى من بعده اسـمه أحمـد ، فهؤلاء الأنبيـاء دعوتهم واحدة ولكل منهم جـعل الله شريعة ومنهـاجا، وهذا عيسى عليه السلام جاء مصـدقا لما بين يديه من التوراة أى لما سبقه مما أنزله الله على موسى عليه السـلام وهو التوراة ، لكن التبعير القرآنـى هنا له دلالته فهو يقول:«لما بين يديه» وهذا يعنى أن هذا الكتـاب حاضر كأنه ينظر إليه، فهـو يعرفه حق المعرفة، ويـعمل كذلك بما فيه ولذلك يـقول تعالى : ﴿ وَقَفَّـيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(١) .

وإذا كان عليه السلام قـد جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة فـهو أيضا جاء مبشرا برسول يأتى من بعده اسمه أحمد والبشارة إنما تكون بالخـير، ولا ريب أن

(١) المائدة ٤٦.

أصطفاء محمد ﷺ واختياره ليكون رسول رب العالمين إلى العالمين فيه من الخير مالا تحيط به العبارة، فقد كان كل رسول يرسل إلى قومه خاصة وأرسل رسول الله محمد ﷺ إلى الناس عامة بل إلى الثقلين : الإنس والجن ، وكان كل رسول يأتي فيؤدى رسالته لفترة من الزمان فإذا ما خبا ضوء ما جاء به وضل الناس الطريق أرسل الله من بعده رسولاً وهكذا ، ولكن محمداً ﷺ كان ختام الأنبياء والمرسلين فلا نبى بعده، ولذلك جعل الله معجزته مناسبة لعالميته ولرسالته الخاتمة، فأعطاه كتابا لا يمحوه الزمان ولا تستطيع قوة فى الأرض أن تغير فيه حرفا فقد تعهد رب العزة والجلال بحفظه فقال: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» فهذا هو الرسول المنتظر الذى وكل الله ببعثته إنقاذ الإنسانية من الكفر والضلال والظلم والطغيان والجهالة الجهلاء؛ فتح الله به أعينا عميا وقلوبا غلفا وهدى به من الضلالة وبصّر به من العمى ، ولهذا جاء عيسى عليه السلام يبشر به. وهو عليه السلام لم يقل فى بشارته بأن هذا الرسول يأتى من بعده إليهم إنما هكذا على إطلاقه:« ومبشرا برسول يأتى من بعدى »، وهذا معناه:أنه يأتى من بعده إليهم وإلى غيرهم. وفى قوله: من بعدى : ما يُفهم منه أنه لن يكون بينه وبين رسول الله محمد ﷺ رسلٌ آخرون ، وهكذا كان ، فقد ولد عليه الصلاة والسلام في يوم الإثنين الموافق للعشرين من أغسطس عام سبعين وخمسمائة من الميلاد «٢٠/٨/ ٥٧٠» م.وجاء ه الوحى فى غار حراء فى شهر رمضان وهو فى سن الأربعين أى عام عشر وستمائة من الميلاد وخلال ستة قرون لم يبعث الله لهذه الأرض رسولا، ولذلك أخبر عيسى عليه السلام قومه بهذه الحقيقة حين قال:«يأتى من بعدى» وهذه دعوة منه عليه السلام لقومه للإيمان بهذا النبى ومؤازرته ونصرته ليكون فى هذا فلاحهم فى الدنيا والآخرة، وهذا ما عبرّت عنه سورة «الأعراف» فى قول الله تعالى وهو يبين من سيحظى برحمته التى وسعت

كل شيئ فيقول ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١) بل إن ما أوصى به قومه هو وصية الله لأنبيائه ورسله أن يؤمنوا بهذا الرسول وأن يأخذوا العهد على أقوامهم أن يؤمنوا به يقول تعالى :﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي (أى عهدى) قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾(٢) . قال ابن عباس. ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه العهد لئن بُعث محمد وهو حى ليتبعَنّه وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبّعَنّه ولينصرنَّه ولعل فيما أخبر الله به رسوله من قول عيسى وبشارته لقومه تطمينا لفؤاده، وشرحا لصدره ، وإدخالا للسرور على قلبه فهو عليه السلام دعوة إبراهيم وبشرى عيسى ، فما أكرمها من بشارة وما أعظمها من منزلة.

وقد حدد عيسى عليه السلام اسم هذا الرسول باسم لا يشتبه بغيره من الأسماء فاسمه أحمد، وهذا كله إنما يكون بوحى من الله لنبيه عيسى ، لأن هذا غيب لا يعلمه إلا الله، وأحمد أفعل تفضيل أى أحمد الحامدين لربه، والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كلهم حامدون لله ونبينا أحمد أكثرهم حمدا وأما محمد فهو الذى حمد الله مرة بعد مرة. وهو فى معنى المحمود، وهو لم يكن

---

(١)الأعراف ١٥٦ ، ١٥٧ .
(٢) آل عمران ٨١.

محمدا حتى كان أحمد، حمد ربه فنبأه وشرفه فلذلك تقدم اسم أحمد على الاسم الذى هو محمد فذكره عيسى عليه السلام فقال: اسمه أحمد وذكره موسى عليه السلام حين قال له ربه: تلك أمة أحمد فقال: اللهم اجعلنى من أمة أحمد، فبأحمد ذَكَره قبل أن يذكره بمحمد، لأن حمده لربه كان قبل حمد الناس له، فلما وجد وبعث كان محمدا بالفعل وفى الصحيح. إن لى أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى وأنا العاقب « أى الذى لا نبى بعده» [1] وما ذكره عيسى عليه السلام ذكره الأنبياء من قبله فيما أوحاه الله إليهم روى البيهقى فى الدلائل عن وهب بن منبه قال: إن الله تعالى أوحى فى الزبور: ياداود إنه سيأتى من بعدك نبى اسمه أحمد ومحمد لا أغضب عليه أبداً ولا يعصينى أبداً وقد غفرت له قبل أن يعصينى ما تقدم من ذنبه وما تأخر..

وقال الإمام القشيرى : بشّر كل نبى قومه بنبينا محمد ﷺ .والله أفرد عيسى بالذكر فى هذا الموضع لأنه آخر نبى قبل نبينا ﷺ ، فبين أن البشارة به عمت جميع الأنبياء واحدا بعد واحد حتى انتهت إلى عيسى عليه السلام .

فماذا كان من أمر بنى إسرائيل حين قال لهم عيسى ما قال؟ يقول تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وفى هذا ما يدل على عمى البصيرة وانطماس معالم الخير فى قلوب هؤلاء المعاندين، فالتعبير القرآنى كما ترى: فلما جاءهم بالبينات، تلمح فيه كلمة«جاءهم» فهى تدل على فعل مقصود يدل على الانتقال من مكان إلى مكان لأداء مهمة مقصودة، وقد جاء هذا الرسول من عند ربه الذى أرسله من أجلهم إرشادا لهم وهداية إلى طريق السعادة والأمان ، وجاءهم ومعه دليل صدقه:جاءهم بالبينات، والبينات جمع بينة

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن :للقرطبى ١٨/ ٨٣، ٨٤ .

والبينة هى الواضحة الظاهرة التى تحمل معها دليل صدقها فكيف إذا كانت بينات، وما جاء به عيسى عليه السلام من ذلك لا ينكره إلا ظالم مكابر، فمن آياته البينات وعلاماته الواضحات ومعجزاته الباهرات كلامه فى المهد حين أتت به أمه تحمله ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[1] فماذا بعد هذه الآية الباهرة والمعجزة الظاهرة؟ ومن ذلك أيضا ما ذكره الله بقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[2] .

ومن هنا عظم جرم القوم حين قالوا : «هذا سحر مبين» وانظر إلى سوء أدبهم مع نبيهم وربهم فقد أشاروا إلى ما جاء به عيسى من البينات باسم الإشارة «هذا» وهو اسم إشارة للقريب، والقرب هنا ليس قرب محبة ومودة، إنما قربُ انحطاط وضعة، واستهانة بهذه البينات ، وقالوا بأنها سحر ، وبالتالى فمن أتى بها ساحر وقد ساقوا هذا الوصف هكذا « سحرٌ» وهو اسم نكرة يفيد التهويل فإذا وُصِفَ هذا السحر بأنه «مبين »أى واضح ظاهر كان سحرا رهيبا يختلب الأبصار، ويستولى على العقول والقلوب، فهل ما جاء به عيسى عليه السلام من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله وغير ذلك من معجزاته

---

(١) مريم ٢٧ ـ ٣٣.
(٢) المائدة ١١٠ .

الكثيرة من هذا الباب الذي ذكروه؟ أليس هذا ظلما لعيسى ولرسالته ودعوته؟ وأى ظلم ؟ولذلك قال تعالى :﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

ويمكن كذلك أن يكون الكلام عن عيسى قد انتهى عند قوله: «ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » ثم ذكر الله ما كان من أمر المبَشَّر به وهو أحمد ﷺ فقال: فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين، أى فلما جاء محمد ﷺ قومه بالمعجزات الباهرات والآيات البينات قالوا هذا سحر مبين ، ورمى الأنبياء بالسحر وأن ما جاءوا به سحر موقف يتكرر عبر الزمان والأيام حتى قال ربنا: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (1)وقد رأينا ذلك فى آية سورة المائدة حيث قال ربنا فى عيسى عليه السلام: فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين .أما محمد ﷺ فقد ذكر ذلك فى أكثر من موضع ترى ذلك فى قوله:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾(2) وفى قوله : ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾(3) وفى قوله :﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (4)إلى غير ذلك من الآيات ـ وقد عقب الله على هذا القول الذى يدل على جهل وحماقة وظلم بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فلنتأمل فى هذا الرد الذى ذكرته الآية الكريمة وما بعدها ففيه الكثير

(١) الذاريات : ٥٢، ٥٣.
(٢) الأنعام : ٧ .
(٣) هود : ٧ .
(٤) الأحقاف :٧.

من الدروس النافعة والعظات البالغة فما حدث منهم يساق فى ضوء حقيقة مقررة لا يستطيع عاقل أن ينكرها تلكم الحقيقة هى أن من افترى على الله الكذب مع دعوته لما فيه خيره هو أظلم الظالمين، وهذه الحقيقة تساق فى صورة سؤال هكذا :ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام؟فتكون الإجابة التى لامفر منها لكل من يتوجه إليه هذا السؤال: لا أحد أظلمُ منه ، وفى مفردات هذا السؤال ما يحتم هذه الإجابة. فكلمة الظلم توحى بانحراف فى السلوك وخروج عن الجادة وبعد عن الحق ولذلك قيل إن الظلم وضع الشئ فى غير موضعه ، كما تحمل معها ما تحمله كلمة الظلم والظلمة ، ولذلك جاء فى الحديث : واتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة »ومن وَضْع الشئ فى غير موضعه الذى ينتقل به صاحبه من منطقة النور والضياء إلى مضيعة الظلام والضلال ، إنكار شمس الحقيقة، فيما أتى به الأنبياء من الحق، وما معهم من دلائل صدقهم وما ترتب على هذا الإنكار وذلك الجحود من ألوان الظلم لهؤلاء الأنبياء وأتباعهم ، وما كان من جحود وكفر بالله ربا متصفا بصفات الجلال والكمال، وهذا كله ساقه إلى ظلم العباد وظلم هؤلاء لأنفسهم حين حرموها من الأمن فى كنف توحيد الله ، والإطمئنان إلى رسله وكتبه، والسعادة التى يشعر بها من تذوق طعم الإيمان : ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا»وهذا الظلم الذى تتحدث عنه الآية يأتى فى صيغة اسم التفضيل «أظلم» ليدلنا على ما ارتكبه هؤلاء من جرم وأنه بلغ من الظلم مداه، ولم لا؟ وهو ليس من باب خطأ يرتكبه إنسان فى حق نفسه بتقصير منه أو فى حق غيره، ويمكن له أن يصلحه،إن هذا افتراء الكذب على الله.. فما معنى الافتراء ؟ وما هو الكذب ؟ ولماذا عبر باسم الجلالة هنا ؟ وماذا عن قوله :وهو يدعى إلى الإسلام ؟

الافتراء معناه:اختلاق الشيئ واختراعه دون أساس من أجل الإفساد ، ومادة الكلمة،[الفاء والراء والياء] ترجع إلى أصلين :قطع الشئ وتغطيته ،وستره بشيء ثخين ، فكأن هؤلاء اقتطعوا كلاما زورا لا أصل له ، اقتطعوه عمدا وقَصْدًا وبنوا منه أوهاما وضلالا غطوها ،وستروها بألسنة حداد ، وكلمات شداد، فبدت وكأنها الحق. وليس لها من الحق نصيب ،واغتر بها من لا عقل له، وما أكثر هؤلاء في كل زمان ومكان والذى اختلقوه واخترعوه هو الكذب ، فما هو الكذب؟ الكذب الإخبار عن الشئ بخلاف ما هو عليه، أو الإخبار عن الشئ بخلاف ما يعتقده قائله. إذ لا بد فى الكلام ليكون صادقا : أن يكون مطابقا للواقع وأن يكون مطابقا لما فى النفس وإلا فهو كذب وإن طابق الواقع كما نرى فى حال المنافقين الذين يشهدون شهادة الحق ويثنون على رسول الله ﷺ بما هو أهله ولكن لما كان هذا بخلاف ما فى قلوبهم كان كذبا قال تعالى :﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (١)وقد يجتمع الأمران : عدم المطابقة للواقع وعدم المطابقة لما فى النفس ولنقرأ بعض ما جاء فى ذلك كقوله تعالى :﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾(٢) ونعود إلى الآية التى معنا : [ومن أظلم ممن افترى الله الكذب]، فهؤلاء المجرمون الظالمون اختلقوا الكذب، أى اخترعوا كلاما وظنوا لجهلهم أن هذا من عند الله وأنه دين يدينون به لرب العالمين ،وأن ما جاء به رسل الله سحر بيِّنٌ ، فإذا سئلوا عمن خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ومن يحيى ويميت قالوا :الله،وإذاً فلماذا تشركون به آلهة أخرى ؟

(١) المنافقون ١ .

(٢) البقرة ٨ ـ ١٠

قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ،ولذلك جاء التعبير القرآنى هكذا : «ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب»؟ فجاء بلفظ الجلالة ليبين مدى ماهم فيه من ظلم وما يرتكبونه من جريمة فى حق هذا الإله، وما زالت الآية تجسد وتصور ظلم الكافرين لربهم ولأنبيائهم وهى تأتى بهذه الجملة الحالية : **وهو يُدْعَى إلى الإسلام**.. فأتى بالفعل «يُدعى» ليدل على تكرار الدعوة واستمراريتها، وأنها لم تكن كلمة عابرة قيلت وانتهت إنما هى الدعوة المستمرة والجهد المتواصل الذى بذله أنبياء الله ورسله، وأتباعُهم دون كلل أو ملل ، ما تركوا وسيلة إلا واستعملوها ولا طريقا إلا وسلكوه لإنقاذ الإنسان من وهدة الضلالة والجهالة والشرك والكفر والضياع وهذا الذى يُدَعى ،إنما يدعى لما فيه خيره، يدعى إلى الإسلام ، والإسلام دين كل نبى، لأن خلاصة دعوتهم الاستسلام لله بالعبودية له والطاعة لرسله ، والانطواء تحت لواء شريعته ولنقرأ بعض ما جاء فى ذلك من كتاب ربنا إذ يقول فى إبراهيم عليه السلام :﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾[1] وهكذا كل الأنبياء إلى خاتمهم محمد ﷺ الذى قال له ربه :﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[2] إلى هذا الإسلام العظيم يدْعى هؤلاء فهل يرفض هذه الدعوة عاقل؟

وإذا كان الإسلام دين كل نبى فهو علم على الدين الذى جاء به خاتم

---

(١)البقرة ١٣١، ١٣٢، ١٣٣.

(٢) الأنعام : ١٦٢، ١٦٣.

الأنبياء والمرسلين والذى إذا أطلق فإنما يطلق عليه فيقال دين الإسلام ، وإليه دعا هذا الرسول وجاهد من أجْله فى الله حق جهاده ، وجاء هذا الدين ختاما للدين الذى أتى به الأنبياء من قبله فكان له من الخصائص ما يضمن له البقاء باعتباره الكلمة الأخيرة لدنيا الناس ، فمن يُدْعَى إليه فلا يلبى، ولا يكتفى بهذا إنما يناصبه العداء و ينشر من حوله الأكاذيب فيفترى على الله الكذب لا ريب أنه ليس هناك أظلم منه، والجزاء من جنس العمل ولذلك جاء فى ختام الآية: «**والله لا يهدى القوم الظالمين** »فهم يدخلون فى هذه الحقيقة المقررة وتلك السُّنة التى جعلها الله فى خلقه . والتى تحمل معها عدل الله حين تبين السبب الذى من أجله حرموا هداية التوفيق ، ألا وهو الظلم، الظلم بكل أنواعه فيما بينهم وبين خالقهم وفيما بينهم وبين المخلوقين وفيما بينهم وبين أنفسهم ، والهداية كما ذكرنا نوعان: هداية دلالة وإرشاد وهداية توفيق . وهداية الدلالة والإرشاد تولاها الأنبياء والمرسلون وأتباعهم بلاغا عن الله فأدَّوْها خير الأداء ولم يتركوا حجة لأحد ، قال تعالى :﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾(١) وقال ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (٢)وقال:﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (٣) فمن انصرف عن هذه الهداية ومن عمى عن هذا الطريق ، ومن لم يستجب لما يُدْعى إليه ، حرم من نعمة التوفيق وصرف الله قلبه عن الإيمان قال تعالى :﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾(٤).

وقال:﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * وَالَّذِينَ

(١) الإسراء / ١٥ . (٢) النساء / ١٦٥.
(٣) فاطر / ٢٤. (٤) الأعراف / ١٨٦ .

اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾(١).

وإيضاحًا لما يرتكبونه من جرم وما هم عليه من ظلم قال تعالى : «يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم » فهل يستطيعون ذلك ؟ يقول تعالى :﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾فلنتدبر قوله تعالى :« يريدون ليطفئوا نور الله بأفواهم » وما جاء بعد هذا القول من وعد كريم .. فأنت تلمح أن الآية جاءت مفصوله عن سابقتها وكأنها إجابة عن سؤال مقتضاه: لماذ يفترون على اللهالكذب؟ ماذا يريدون بذلك فقال: يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم، والإرداة فعل يدل على الانطلاق في جهة واحدة، فهي عزم وتصميم لتحقيق غرض من الأغراض ينطلق إليه صاحبه لا يلوى على شيئ ولا يلتفت إلى شئ حتى يحقق ما أراد، وهذا المعنى يضعه القرآن هنا فى صيغة الفعل المضارع الذى يدل على تكرار الفعل واستمراره، فهؤلاء إذن يبذلون محاولات مستمرة للوصول إلى تحقيق هذا الهدف الخبيث:إطفاء نور الله، وأنت تلمح أنه حذف مفعول الإرادة لتقدره بما يناسبه فتقول يريدون إبطال القرآن ، والقضاء على الإسلام ، أو إهلاك رسول الله ﷺ ـ أهلكهم الله ـ أو ما شئت من هذه المعانى بعضها أو كلها ليطفئوا نور الله، فاللام للتعليل أو اللام مزيدة للتأكيد أو أنها بمعنى «أن» والتقدير: يريدون أن يطفئوا نور الله »كما جاء ذلك فى التوبة ، فما معنى إطفاء نور الله ؟ ولماذا قال بأفواههم ؟

يقول ابن منظور : النار إذا سكن لهبها وجمرها بَعْدُ فهى خامدة، فإذا سكن لهبها وبرد جمرها فهى هامدة وطافئة (٢)ويقول القرطبى : الإطفاء هو الإخماد ،

(١)محمد ١٦ ، ١٧.

(٢) لسان العرب لابن منظور ٣/ ٤ ص ٢٦٧٩.

يستعملان فى النار ويستعملان فيما يجرى مجراها من الضياء والظهور، ويفترق الإطفاء عن الإخماد من وجه وهو أن الإطفاء يستعمل في القليل والكثير، والإخماد إنما يستعمل فى الكثير دون القليل ، فيقال، أطفأت السراج ولا يقال أخمدت السراج »[1] ولم يرد فى القرآن : إخماد النار ، إنما جاءت وصفا لحال من أهلكهم الله وأماتهم وذلك فى قوله تعالى :﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ [2] وفى قوله:﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ ﴾ [3] فالإطفاء قد جاء كما ترى هنا فى «الصف» ومثله فى «التوبة» وجاء فى «المائدة »فى قوله ﴿ كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ﴾ ولعلنا نتساءل لماذا جاء بالإطفاء دون الإخماد؟ والسبب واضح فإن النار تكون خامدة إذا سكن لهبها وجمرها فهى إذن قابلة للاشتعال، أما إذا أُطفئت فإن ذلك معناه أن لهبها قد سكن وأن جمرها قد برد ، فلم يعد لها وجود، وهذا ما يريده الظالمون ،إنهم لا يريدون أن يختفي نور الله ، فهو بما له من عناصر القوة والبقاء سيظهر لا محالة ، ولكنهم يريدون محقه وإزالته حتى لا يبقى له أثر ، وحتى لا يكون هناك أمل فى ظهوره مرة أخرى ، إنهم يبذلون كل جهدهم لإزالته من على وجه الأرض ، قاتلهم الله ، وأنى لهم ذلك ؟ إنه نور الله ، وفى إضافة هذا النور إلى الله ما يدل على قوة سطوعه، وما له من خصائص ومميزات تجعله غير قابل للإطفاء، ولعل فى اختيار لفظ الجلالة «الله » فى هذا الموضع ما يرشدك إلى عظمة هذا النور، وكمال إشراقه، وتأتى كلمة« بأفواههم، لتبين سذاجة هؤلاء الظالمين وهى تصورهم وقد وقفوا أمام الشمس الساطعة ينفخون بأفواههم ظنا منهم أنهم سيطفئون ضوءها ، ولو نفخوا الدهر كله ما استطاعوا إلى ذلك

(١) الجامع لأحكام القرآن الكريم : للقرطبى ١٨ / ٨٥.
(٢) يس ٢٩.
(٣) الأنبياء / ١٥.

سبيلا، وياله من تعبير ساخر يتهكم بهم ويظهر حماقتهم وضيق أفقهم. كما يدلك هذا القول على ضعف عقيدتهم ، فهم لا يبذلون جهودهم فى إبطال شريعة الله ، ومحو دين الله، عن عقيدة راسخة فى قلوبهم ، إنما هى كلمات ينطق بها اللسان دون أن ينفعل بها الجَنَان، إنها مجرد أفواه تتكلم لا تعبر تعبيرا صادقا عما فى الوجدان، وصدق الله إذ قال فى المشركين: ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾(١) وقال فى فرعون وقومه وموقفهم من موسى عليه السلام وما جاء به من الآيات : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾(٢) فهم يعلمون أن أنبياء الله على الحق وأن ما معهم هو الخير ، ولكنه الكبر الذى يسيطر على القلوب، وبريق المصالح الضيقة التى تقود إلى محاربة الحق وأتباعه ، ولذلك لما سئل أبو جهل : أمحمد صادق أم كاذب؟ قال: والله إن محمداً لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ؟ إنها إذن أفواه تنطق وتهرف بما لا تعرف وتحاول عبثا إطفاء نور الله بأفواه عاجزة ،وأنى لهم ذلك **«والله متم نوره ولو كره الكافرون ..»**

وزيادة فى تحقيق ما وعد الله به رسوله من نصر ، وتطمينا لفؤاده والمؤمنين معه يأتى قوله فى الآية: **﴿والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾** فهذا وعد كريم من الله : إنهما جملتان كل جملة مبدوءة بواو هى واو الحال، وهى حال متداخلة، الجملة الأولى حال من فاعل يريدون أو يطفئوا ، والثانية حال من هذه الحال، وكأنه قال : كيف يتمكنون من إطفاء نور الله، والله متم نوره ولو كره

(١) الأنعام : ٣٣.

(٢) النمل : ١٣ ـ ١٤.

الكافرون؟ والجملة الأولى جملة اسمية، والجملة الإسمية تدل على الثبات والدوام، فكأنها تقرر حقيقة لا تتغير ولا تتبدل، وقد بدأت بفظ الجلالة«الله» وكان مقتضى السياق أن يقول: وهو متم نوره، لكنه أظهر الاسم الجليل إظهاراً لعظمته، وبيانا لقدرته، وإلقاء للمهابة فى قلوب أعدائه، والثقة والسكينة فى قلوب أوليائه، وتأتى كلمة«متم» ليغيظ الله بها الظالمين ، إذ معناها أن مسيرة هذا الدين ماضية فى طريقها لن يوقفها كيد هؤلاء الحمقى، وقد صدق الله وعده ، ونصر عبده، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، وما جاءت السَّنة العاشرة حتى نزل على رسول الله ـ ﷺ ـ وهو واقف فى عرفات فى حجة الوداع: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (١).

ومرة أخرى يُظْهر فى موضع الإضمار، فيقول: والله متم نوره، وكان مقتضى السياق أن يقول: وهو متمه، وإنما أظهر، إظهارا لنوره، واهتماما بأمره ، ثم تأتى الجملة الثانية: « ولو كره الكافرون» لتبين ـ أولا ـ موقف هؤلاء الظالمين من دين الحق، وأنه موقف الكراهية، ولتبين ـ ثانيا ـ سبب هذه الكراهية، وأنه الكفر بالله، والكراهية هى الأمر الشاق الذى لا حيلة فى رده ولابد من تحمله، وهذا هو حال الكافرين والحاقدين والحاسدين للإسلام ، إنهم يموتون غيظا وكمدا ويتقطعون حسرة وألما، وهم يشاهدون هذا الدين ينتقل كل يوم بل كل لحظة من نصر إلى نصر حتى أشرق نوره فى العالمين، ودخل الناس فيه أفواجا ، ومع كل لحظة انتصار لدين الله يزداد هؤلاء غما وحزنا وكرها، وليس هناك من سبب لكل هذا الألم الذى يعيشون فيه، ولكل تلك الكراهية الشديدة إلا ما هم مقيمون عليه من الكفر، و«أل» فى : الكافرون، تعنى أنهم وصلوا فى كفرهم إلى أبعد الحدود،

---

(١) المائدة ٥/ ٣.

وأنهم متمكنون فيه كل التمكن ، والكفر كلمة تدور معناها حول التغطية والستر، ولهذا قيل : لليل كافر ؛لأنه يستر النهار بظلامه، وقيل للزارع كافر لأنه يبذر الحب فى الأرض ويواريه بالتراب، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ..﴾فالكافر سمى كافرا ـ إذاً ـ لأنه ستر الحق وأظهر الباطل ، فالإيمان بذرة في الوجدان الإنسانى، وفطرة أصيلة فى الكيان البشرى، وفى الحديث عن أبى هريرة ـ رضي الله ـ قال:قال رسول الله ـ ﷺ ـ :«ما من مولود إلا يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء، ثم تلا أبو هريرة قول اللهتعالى :﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾(1) .

ولهذا اختار كلمة الكفر هنا ليبين لنا أن هؤلاء لا ينبعثون من عقيدة راسخة، إنما هى الأوهام والعادات وميراث الآباء، ولو تخلوا عن عنادهم وألقوا قلوبهم وعقولهم إلى داعى الحق لوجدوا أنهم كانوا على خطأ عظيم فى رفضهم لدين الله

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾(2).

وإذا كانت القلوب قد أطمأنت ونحن نقرآ ونتأمل قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ فسوف نزداد اطمئنانا ونحن نقرأ ونتأمل الآية التالية:﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ وما ذلك إلا لأن الآية مستأنفة لتأكيد ما جاء فى الآية السابقة من بيان قدرة الله على إتمام نوره ونصرة دينه رغم

(1) الروم ٣٠/ ٣٠.

(2) سبأ ٤٦.

أنف الكافرين ، وكان يمكن أن يقال: والله متم نوره ولو كره الكافرون، فقد أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ولكنه عدل عن ذلك وقال: هوالذى أرسل رسوله» فعبر بالضمير: «هو» لتقف النفس فى محرابه خاشعة خاضعة، ويهتز القلب والوجدان وهو يستجمع ما يحمله هذا الضمير من كل ما للإله العظيم من صفات الجلال والكمال،وهذا الضمير مبتدأ خبره: الذى، واسم الموصول هنا يدلك على التعظيم والتفخيم لله رب العالمين، أما قوله: «أرسل رسوله بالهدى ودين الحق »فهى صلة الموصول ، وتلمح فيها أنه اختار التعبير بالرسالة، فقال: أرسل رسوله، فدل على وجوب احترام وتقدير هذا الرسول، احتراما وتقديرا لمن أرسله، ووضع أيدينا كذلك على مكمن الصراع والخلاف بين الرسل وأممهم: فلو أن هؤلاء الرسل وقفوا عند ما أوحاه الله إليهم ليعملوا به وحدهم دون أن يتعرضوا لدعوة الناس إلى الحق الذى أوحاه الله إليهم لما تعرض لهم أحد ، ولكنهم حملوا رسالة ربهم ليبلغوها لأقوامهم، وفيها دعوة لتغيير ما ألفوه من عقائد فاسدة، وعادات كاسدة ، وليس هذا بالأمر الهين مما احتاج من الرسل إلى بذل وجهاد مما نقرؤه فى كتاب الله من قصصهم حتى بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة فجزاهم الله خير الجزاء، فبماذا أرسل رسول الله محمد ـ ﷺ ـ ؟ أرسل بالهدى ودين الحق، وقف معى عند قوله: بالهدى، لترى كم تفيض بالرحمة الإلهية والعناية الربانية، فالهداية ليست مجرد دلالة إلى طريق الرشاد، وإنما دلالة فيها رفق ومودة وحرص ومحبة، وقد أتت ـ كما ترى ـ مطلقة لتفيد العموم، ففي أى جانب من جوانب الحياة تري نور هذه الهداية الربانية:﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾(١).

وتدبر قوله : «دين الحق» فلم يصف الدين بأنه الدين الحق، إنما أضافه للحق، وهى إضافة اختصاص، والحق هو الله:﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ

(١) الإسراء ١٧/ ٩، ١٠.

هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾(١).فهـذا ـ إذًا ـ دين الله الحق، بكل ما لهذه الصفة من دلالات، ومايترتب عليها من المعانى ،إذ يمكنك أن تقول: بأنه دين الحقائق الثابتة التى لاتقبل التغيير، وأنه دين الأصالة التى تضمن له البقاء، وأنه دين جاء يدعو إلى الحق، ويقرره وينصره ، ويقيم العدالة بين الناس بما أتى به من شريعة سمحاء أوحى بها رب الأرض والسماء، إلى خاتم الرسل والأنبياء، وجعل لها من الخصائص ما يجعلها صالحة بل و مصلحة لكل زمان ومكان، وتولى بقوته وقدرته وعظمته حفظ الكتاب الذى يحمل هذا الخير فقال:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(٢). لقد جاء كتاب الله،والحق لحمته وسداه، جاء يقرر ويرسى دعائم الحق فى العقيدة والأخلاق والمعاملات وفى كل حركة وسكون لبنى الإنسان ليضمن لهم حياة كريمة فى ظل الهداية الربانية رحمة منه وفضلا و ما كان ربك ليخلق الخلق ويتركهم يخبطون فى أرضه دون أن يكون بين أيديهم مصباح يكشف لهم الطريق، فكان أن اختار من بين خلقه كما قال فى كتابه:

﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيمًا ﴾(٣).والله حين أرسل رسوله بالهدى ودين الحق إنما أرسله وتولى نصره وأعلى كلمته فقال:«ليظهره» على الدين كله،ولو كره المشركون» وعلى هذا فالضمير في قوله:«ليظهره»ه يعود على رسول الله محمد ﷺ ويمكن أن يعود الضمير إلى قوله«ودين الحق» فما معنى إظهاره إذًا؟ ولماذا ختمت الآية بقوله ولو كره المشركون؟

الإظهار إعلاء ورفعة حتى يكون واضحا ظاهرا، وذلك بالنسبة لرسول الله ـ ﷺ ـ معناه: نصره وتأييده و إمداده بأسباب القوة والتمكين، ومن نظر في مسيرة

---

(١) المؤمنون ١١٦/٢٣.

(٢)الحجر ٩/١٥

(٣) النساء:٤/ ١٩٥.

هذا الرسـول العظيم وجد أنـه فى كل يوم ينتقل بـه ربه من نصر إلى نصـر ومن تمكين إلى تمكين، وقـد تحدى الله المشـركين وغـيرهم فى فـجر الدعـوة فقـال فى سورة الحج ـ وهى من السـور المكية ـ ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِـرَةِ فَلْيَـمْـدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَـاءِ ثُمَّ لْيَـقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَـيْـدُهُ مَـا يَغِـيظُ﴾(١).والإظهار كذلك إعلام وتوضـيح للأمر، ومن ذلك قوله تعالى:﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْـضَهُ وَأَعْـرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّـا نَبَّـأَهَا بِهِ قَـالَتْ مَنْ أَنبَـأَكَ هَذَا قَـالَ نَبَّـأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾(٢)وقد أطلع الله رسوله ـ ﷺ ـ على شـرائع الدين كله، وأعلمه بها فلم يخف عليه شيئ منها، فإذا قلنا: إن الضمـير يعود إلى:«دين الحق» فمعنى إظهاره على الدين كله واضح وظاهر، فقداختار الله الإسلام ليكون الكلمة الأخيرة لدنيا الناس، فهو الدين الخاتم، المهيمن على ما سبقه من دين، كما قال تعالى:﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّـا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾(٣)وهـــذا الإظهار والانتـصار والإعلاء الذى تكفل الله به ووعد به رسـوله والمؤمنين سوف يكون ولو كـره المشـركون، وقـد أنجـز الله وعده بحـمـده ومنّه وفضـله فمـا هى إلاسنوات مـعـدودات حـتى خـفـقت رايات هذا الدين فى المشـارق والمغـارب، وارتفع اسم الله الواحد فى كل مكان من هذه الأرض رغم مـا بذله أعداء الله من الكافرين والمشـركين والحاقدين والحاسـدين من محاولات يائسـة لإطفاء نور الله وأنى لهم ذلك، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، والسؤال هنا

(١) الحج ٢٢/ ١٥.
(٢) التحريم ٦/ ٣.
(٣)المائدة ٥/ ٤٨.

هل تم نصر الله لنبيه ولدينه بقوة قاهرة من قبل الله القوى القادر كما كان شأنه مع كثير من الأنبياء السابقين حيث يُنزِلُ بأسه الشديد بمن كذبهم كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١)؟

وكما قال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٢)

إن ذلك لم يكن بالنسبة لرسول الله محمد ﷺ لأنه لوحدث هذا لكان الناس فى حاجة إلى رسول آخر يأتيهم بكتاب من عند الله،وقد سبقت كلمة الله أنه لانبى بعد محمد - ﷺ - ولا كتاب بعد القرآن الكريم، ولذلك نقرأ فى القرآن بعض ما جاء فى هذا المعنى حيث يقول ربنا: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾(٣)

ويقول: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾(٤)

والطريق - إذًا - أن يتم نصر الله لدينه ولنبيه بالجهاد فى سبيله: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ

(١) يوسف ١٢/ ١١٠.
(٢) العنكبوت ٢٩/ ٤٠
(٣) الشعراء ٢٦/ ٣، ٤
(٤) محمد ٤٧/ ٤.

أخبرنى ما سمعت من رسول الله ﷺ فى النجوى ؟ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يُدنى المؤمن من ربه حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه: تعرف ذنب كذا وكذا ؟ فيقول : أعرف ربّ، أعرف ـ مرتين ـ فيقول: سترتها عليك فى الدنيا وأغفرها لك اليوم . ثم تطوى صحيفة حسناته، وأما الآخرون أو الكفار أو المنافقون فينادى بهم على رءوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين.

وفى الحديث عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : من نوقش الحساب عُذِّب ، فقلت: أليس يقول الله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيراً * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾؟ [1]فقال: إنما ذلك العرض، وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك» وإذا كان المؤمن قد حظى بهذا الخير ، ونال مغفرة لذنوبه فإن هناك فى التعبير القرآنى فى قوله «يغفر لكم ذنوبكم» عظيم البشرى لأن الفعل المضارع يدلك على تجدد مغفرة الله لذنوب المؤمنين المجاهدين، وأن هذا يواكب رحلة المؤمن طوال عمره فى هذه الدنيا إلى أن ينتقل إلى الدار الآخرة ليكون العتاب وعرض الذنوب وتقرير العبد بها ثم التجاوز عنها ليدخل المؤمن الجنة برحمة الله وفضله، واقرأ فى ذلك ما جاء فى القرآن من طلب الاستغفار وما جاء فى السنة من ذلك ، وما يترتب على هذا من مغفرة الله لذنوب عباده، وتأمل معى ما رواه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:« إن عبداً أصاب ذنبا فقال: يارب إنى أذنبت ذنبا فاغفره ،فقال له ربه: علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به فغفر له، ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنبا آخر، وربما قال: ثم أذنب ذنبا آخر ، فقال: يا رب إنى أذنبت ذنبا آخر فاغفره لى، قال ربه: علم عبدى أن له ربا يغفر

---

(١) الإنشقاق ٧ ـ ٩

الذنب ويأخذ به فغفر له، ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنبا آخر، وربما قال : ثم أذنب ذنبا أخر فقال:يارب إنى أذنبت ذنبا فاغفره لى، فقال ربه: علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به فقال ربه: غفرت لعبدى فليعمل ما شاء» أى ما دام كلما أذنب ذنبا استغفر وتاب منه محققا شروط التوبة من الندم علي مافات والعزم والإصرار على ألا يقع فى ذنب أبدا وأن يتبع ذنبه بعمل صالح، وإذا كان ذنبه يتعلق بحقوق العباد ردها إليهم وهكذا يتجدد له غفران ذنبه بتجدد توبته وندمه، وقد جاء فى القرآن قوله تعالى فى صفات المتقين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾(١)

وفى صفات عباد الرحمن يقول تعالى :﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا *يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا *وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ (٢)أريت ما فى قوله:**«يغفر لكم من ذنوبكم»** من بُشْرَيات، وما فيها من ربح وفير، وما فيها من فضل الله ورحمته بأهل الإيمان؟ وقد عطف على قوله : **« يغفر لكم ذنوبكم»** قوله :**«ويدخلكم جنات .. »**فهذا إذًا وعده الثانى : أن يدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار.والكريم إذا وعد وفى ، والجنات جمع جنة، وهى دار الثواب للمتقين، والجنة البستان بما فيه من أشجار وثمار ومياه ، وهى ليست جنة واحدة إنما هى

---

(١) آل عمران ١٢٥ ـ ١٢٦ .

(٢)الفرقان ٦٨ ـ٧١.

جمّلوها وزينوها و باعوها لمن لا يعرفها فكانت الخسارة فى مثل هذه الصفقات مؤكدة فجاءهم ناصح أمين يرشدهم ويدلهم على لون من البضاعة الرابحة التى لاخسارة فيها أبدا فقال لهم: ﴿ يَا أيها الذِّين آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

ثم إنه عبر بالمضارع فقال:هل أدلكم، وهذا معناه أن إرشاد الله للمؤمنين متواصل لا ينقطع، فهذه كلماته فيما أنزله على رسوله من وحى قائمة فى فم الزمان تدعو إلى الطريق الأقوم، وتبين للناس سبل الرشاد والسداد، وجاء بكلمة:«تجارة» هكذا نكرة تعظيما لها وتفخيما لأمرها، والكلمة ترسُم صورة لبنى الإنسان فى هذه الدنيا،وكأن الدنيا سوق قدم إليه الناس من كل مكان للبيع والشراء فربح فيه من ربح وخسر فيه من خسر، ثم وصف هذه التجارة بقوله: «تنجيكم من عذاب أليم» والنجاة: الخلاص من الشئ، فكأن هناك شيئا علق بالإنسان يحول بينه وبين ما يريد، وهذه التجارة تخلصه من هذه العوائق، وتفكه من هذا الأسر، وماأكثر تلك العوائق، وما أشد هذه القيود، ألا ترى إلى حب الدنيا وما فيها من متع ، وما هناك من أموال وأولاد، وما فى طبع الإنسان من ميل للراحة والركون للدعة، ولذلك قال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ*وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾(١) .

وقال:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(٢)

(١) الأنفال ٨/ ٢٨،٣٧.   (٢) التغابن ٦٤ / ١٤ ، ١٥.

إنها تجارة تنجيكم من عذاب أليم، فأى ربح بعد هذا الربح؟ وتأمل معى قوله: من عذاب أليم، لترى كلمة:عذاب ،ومعناها النكال والعقوبة، فإذا جاءت الكلمة نكرة أفادت التهويل، فكيف يكون هذا العذاب المهول إذا وصف بأنه أليم، وأليم : صيغة مبالغة، أى مؤلم ألما شديدا،فهذا عذاب - إذًا - قد بلغ الذروة فى الشدة والألم، فماذا يقول من يعرض عليه هذا العرض،ومن يدعى لهذه التجارة الرابحة؟وبخاصة وأن الذى يعرض هذا هو الله رب العالمين، وأن المبلغ له هو الصادق الأمين محمد - ﷺ - إنه لابد أن يبادر بالقول:نعم ياربنا نريد أن نعرف هذه السلعة الرابحة حتى نتاجر فيها فننجو من العذاب الأليم ونفوز مع الفائزين فقال:﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾..وما بعدها من الآيات .

طريق الربح - إذا - يتمثل فى أمرين: الإيمان بالله ورسوله، والجهاد فى سبيل الله بالأموال والأنفس، ولكن التعبير عن هذين الأمرين يساق بطريقة تدعو إلى الاستجابة لأمر الله، فقوله: «تؤمنون بالله ورسوله» تأتى بعد ندائهم بصفة الإيمان، حثا لهم على الثبات على ما آمنوا به، فإن الثبات على الإيمان يحتاج إلى يقظة وجهد، ولذلك كثيرا ما كان رسول الله - ﷺ - يقول كلما تقلب فى فراشه: يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك ، وقد قال الله للمؤمنين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(١).

وهذه وصية الأنبياء لأبنائهم، قال تعالى :

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(٢).

---

(١) آل عمران ٣/ ١٠٢.
(٢) البقرة ٢/ ١٣٢.

ومثل ما جاء فى الآية الكريمة قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا﴾[1].

وإذا كان الإيمان هو مطلق التصديق بشئ ما: حقا أو باطلا فإن الإيمان المطلوب هنا هو الإيمان بالله ورسوله، والإيمان الذى به النجاة هو التصديق بالجنان، والنطق باللسان، والعمل بالأركان، فالقلب يعتقد اعتقادا جازما فى الله ربا وإلها أرسل رسلا وأنز ل كتبا، وله ملائكة كرام، وهناك بعد هذه الحياة الدنيا بعث وحساب وجنة ونار ، واللسان ينطق بالشهادتين معبرا عن هذا الإيمان، والجوارح تنطلق تعمل بما آمن به القلب وعبَّر عنه اللسان فتؤدى ما افترض الله من فرائض الصلاة والزكاة والصيام والحج وما إلى ذلك مما جاء به كتاب الله، وأوضحته سنة رسول الله ـ ﷺ ـ وهذا العمل الذى يواكب مسيرة الإنسان المؤمن هو الذى جعل القرآن يقول:« تؤمنون بالله ورسوله»فعبر بالفعل المضارع الذى يدل على تجَدُّد هذا الإيمان وتكرر وقوعه ، ومن سيعقد مع الله عقدا ليتاجر معه سيرى أنه فى كل لحظة يبيع ويشترى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [2]ولعلنا نلاحظ أنه اكتفى هنا فى الحديث عن أركان الإيمان بالحديث عن الإيمان بالله ورسوله دون أن يذكر الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وما ذلك إلا لأن من آمن بالله ورسوله فقد آمن بكل هذا الذى ذكرناه.

---

(١) النساء ٤/ ١٣٦.

(٢) التوبة ٩/ ١١١.

بقى الأمر الثانى وهو :الجهاد فى سبيل الله، وهو الذى جاءت آيات سورة الصف تقرره وتدعو إليه وتلوم من تقاعسوا عنه، وكما عبر بالمضارع فى الأمر الأول وهو الإيمان عبر بالمضارع فى الأمر الثانى وهو الجهاد فقال : وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ليبين لنا أن التجارة مع الله بالجهاد فى سبيله عمل متواصل لا ينقطع، وأنه ليس صفقة عقدها مع الله فانتهت بانتهاءوقتها وما ناله فيها من ربح، وإنما هى لحظات العمر الذى لم يعد فيه سوى الله:عبودية له وحبا ودفاعا عن دينه وطلبا لمرضاته وجهادا فى سبيله، فكل لحظة - إذاً - في عمر المؤمن مليئة بالعمل لله، ولكل عمل أجر، وأجر المجاهدين في سبيل الله أجر عظيم،كما سنرى بعضا منه حين ننتقل للآية التالية، بإذن الله ، والجهاد الذى يُنال به الأجر ويحقق الغاية التى شرع من أجلها هو ما كان فى سبيل الله، لأن من كان جهاده من أجل عرض من أعراض الدنيا وشهوة من شهواتها سوف يتوقف جهاده بحصوله على ما سعى إليه من جاه، أو مال، أو متاع، أما من يجاهد فى سبيل الله فجهاده متواصل لا يتوقف حتى يُمكّن لدين ربه فى كل مكان من أرض الله، وحتى يحقق ما وعد الله به من إتمام نوره، وإظهار دينه على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون ، وقد جاءت السنة المشرفة توضح هذا الأمر: فقد روى البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنه - أن أعرابيا أتى النبى - ﷺ - فقال : يارسول الله : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر «أى ليقول الناس بأنه شجاع» والرجل يقاتل ليُرى مكانُه «أى ليتبوأ المكانة اللائقة به» فمن فى سبيل الله؟ فقال رسول الله - ﷺ - من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله . وروى مسلم وغيره عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول:«إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة ، رجل استُشهد ، فأُتِى به فعرّفه نعمته فعرفها. قال فما عملت فيها؟قال:قاتلتُ فيك حتى استُشهدت ،قال: كذبت، ولكن قاتلت لأن يقال هو

جرئ، فقد قيل، ثم أمربه فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار. الحديث.

والجهاد قد يكون جهادا بالمال أو بالنفس أو للنفس أو بالكلمة أو بغير ذلك والمؤمنون يجاهدون بكل ذلك ولاغنى للون منها عن الآخر، ولذلك قال هنا: «وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم » فجمع بين الأمرين ،لأن الواو العاطفة لمطلق الجمع لاتفيد ترتيبا ولا تعقيبا، ومع ذلك نبحث عن سر تقديم ذكر الأموال على الأنفس، وفى هذا يقول صاحب« الفتوحات الإلهية» نقلا عن «الخطيب» : قدّم الأموال على النفس لعزتها فى ذلك الوقت، أو لأنها قوام النفس ، أو لأنها التى يُبدأ بها فى الإنفاق»[1].

بقى لنا أن ألفت النظر إلى أن هذا الخطاب المباشر من رب العزة والجلال لم يرد فى القرآن الكريم إلا في هذه السورة المباركة ، حيث يقول ربنا مخاطبا من ناداهم بصفة الإيمان :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

وهو خطاب فى معنى الأمر وكأنه قال آمنوا وجاهدوا بدليل أنه قال فى الجواب: يغفر لكم ذنوبكم. الآية فجزم الفعل فى جواب الأمر، وإنما عبر بقوله : تؤمنون وتجاهدون «للإشعار بوجوب الامتثال، وكأنهم امتثلوا، فهو يخبر عن إيمان وجهاد موجودين، ونظيره قول الداعى :غفر الله لك، جُعِلت المغفرة لقوة الرجاء كأنها كانت ووجدت» [2].

وإذا كانت هذه آيةً فريدة فى كتاب الله يتحدث فيها ربنا للمؤمنين مخاطبا إياهم يخبرهم بأن التجارة الرابحة إنما تكون معه بالإيمان به والجهاد فى سبيله

(١) الفتوحات الإلهية : للعلامة/ الجمل ٤/ ٣٣٩.
(٢) الفتوحات الإلهية : للعلامة/ الجمل ٤/ ٣٣٨.

وأن هذا خبر فى معنى الأمر ، فقد جاء الأمر بالجهاد صريحا فى سبعة مواضع من القرآن الكريم منها قوله تعالى:﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١)وغير ذلك من الآيات ،

وتعقيبا على ما بين سبحانه من عناصر التجارة الرابحة والتى تتمثل فى الإيمان والجهاد قال: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾فأشار بقوله:« ذلكم» وهو اسم إشارة للبعيد، ليدل على منزلة الأمرين، وأنهما بلغا الغاية بين شعائر الإسلام، فعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا، وبمحمدا ـ ﷺ ـ نبيا ورسولا، وجبت له الجنة، فعجب لها أبو سعيد، فقال أعِدْها عَلىَّ يارسول الله فأعادها عليه، ثم قال:وأخرى يرفع الله بها للعبد مائة درجة فى الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، قال: وما هى يا رسول الله؟ قال: الجهاد فى سبيل الله»(٢)،وروى الطبرانى عن أبى أمامة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال: ذروة سنام الإسلام : الجهاد ، لايناله إلا أفضلهم.وعن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال سئل رسول الله ـ ﷺ ـ أى العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله، قيل :ثم ماذا؟قال الجهاد فى سبيل الله، قيل ثم ماذا ؟ قال حج مبرور(٣).

وعن أبى سعيد الخدرى ـ رضي الله عنه ـ قال: أتى رجل رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: أى الناس أفضل؟ قال: مؤمن يجاهد بنفسه وبماله فى سبيل الله تعالى قال: ثم من ؟قال ثم مؤمن فى شِعْبٍ من الشِّعاب يعبد الله، ويدع الناس من شره»(٤)

---

(١) التوبة ٩/ ٤١.

(٢) رواه مسلم وأبو داود والنسائى.

(٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى .

(٤) رواه البخارى ومسلم وغيرهما.

إلى غير ذلك مما ورد فى السنة المشرفة.

ولاشك أن المؤمنين حين يتاجرون مع الله تعالى بهذين الأمرين سوف ينالون الربح العظيم، والذى عبرت عنه كلمة « خير لكم» والخيرية مطلقة، فهذا خير لكم من الأموال والأولاد والأنفس والأرواح، ومتع الدنيا وما فى القعود عن الجهاد من راحة للبدن ، والاستمتاع بمباهج الحياة، وهذا الخير لن تعود منفعته إلى الله إنما منفعته لكم أيها المؤمنون :عزة فى الدنيا وثوابا فى الآخرة، ولكن هذا يحتاج إلى علم وفهم وإدراك ولذلك قال:«إن كنتم تعلمون» أى إن كنتم من أهل العلم «فإن الجاهل لا يعتبر بفعله ولا يثاب عليه وليس فيه خير»[1] والعلم هنا هو العلم بالله وما له من صفات الكمال والجلال وما له على خلقه من حق العبودية والطاعة والموالاة، وهو العلم بما يضر وما ينفع وفق ما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وقد يصل إنسان فى علوم الدنيا إلى أقصى الدرجات فيقال عنه بأنه عالم ، ولكنه فى علوم الآخرة، وما يقود إليه العلم النافع والفهم الثاقب من إدراك وظيفة الإنسان في هذه الحياة جاهل لا يلتفت إلى ما ينفعه فتراه على جانب عظيم من التقصير فى عباداته، وفى معرفتها أو أدائها، أو أن المعنى :إن كنتم تعلمون أنه خير فافعلوه، ويبدو أن الأمر لا يختلف كثيرا وعلى العاقل من أهل الإيمان أن يكون فى كل لحظة يقظا بصيرا حريصا على تحصيل ثواب الله فهذا الثواب وإن قلّ خير من الدنيا وما فيها، قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[2] والباقيات الصالحات هى كل عمل صالح يبقى لصاحبه بعد موته، ويدخل فى ذلك ذكر الله والصلاة والصيام وأفضل الأعمال الجهاد فى سبيل الله

---

(١) الفتوحات الإلهية : للجمل ٤/ ٣٣٩.

(٢) الكهف ٤٦.

ولذلك قال رسول الله ـ ﷺ ـ: « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها، والروحة يروحها العبد فى سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما فيها»(١).

وقال:إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»(٢). فمن الذى يعلم ذلك ويدركه فيتخلّف عن الجهاد فى سبيل الله؟ وترغيبا فى الإيمان الحق، والجهاد فى سبيل الله، وتوضيحا لما فيهما من خير قال تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾فلنقتبس من نور هذا الأجر العظيم ، وهذه الكلمات الطيبة ما يستحث خطانا على طريق الله . فهذا الخير الذى لابد أن نعرفه وأن نهتم به ونلتفت إليه يبدأ بمغفرة الذنوب، وكم فى هذا من خير ، لأن المغفرة ستر للذنوب والعيوب والنقص والتقصير وهى أمور لا يخلو منها أحد، فكل بنى آدم خطاء وخير ا لخطائين التوابون، كما يقول رسول الله ﷺ ، فإذا كان أول ثواب المؤمنين المجاهدين مغفرة ذنوبهم فما أعظمه من ثواب. وكأنه المقدمة لما بعد ذلك من النعيم المقيم فى جنات النعيم .

إن قوله :﴿يغفر لكم ذنوبكم ﴾ فيها من الفضل الكثير ، فيها بيان لما فى طبع الإنسان من قصور يدعوه إلى التقصير فيقع فى الذنوب حين يغلبه طبعه ونسيانه ولكن الذى يشفع له إيمانه وجهاده مما يجعله أهلا لأن يستر الله عليه ذنوبه وألا يحاسبه عليها، وقد روى البخارى ومسلم عن صفوان بن محرز المازنى قال : بينما ابن عمر رضى الله عنه يطوف إذ عرض له رجل ، فقال يا أبا عبد الرحمن

---

(١) رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد رضى الله عنهما.
(٢) روراه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه .

مُؤْمِنِينَ﴾[1] ولهذا جاءت الآيات التالية فى سورة الصف توضح هذه الحقيقة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إنها سنة الله فى أمة محمد ـ ﷺ ـ لن يتم لهم نصر ربهم وهم قعود، إنما ينصرهم ويؤازرهم ويكلؤهم إذا ما استفرغوا جهدهم، وبذلوا أقصى ما فى وسعهم، وضحوا بأنفسهم وما ملكت أيديهم فى سبيل ربهم، هكذا قال الله لهم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[2] ومن رحمة الله بهذه الأمة أن حبب الله دينه والجهاد فى سبيله لقوم اصطفاهم لذلك وشرفهم باختياره لهم حين امتحن قلوبهم للتقوى فوجدها على خير ما يحب ويرضى ، فمنحها هذا الفضل، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[3]

وهذه دعوة القرآن ـ في صورة الصف ـ للجهاد فى سبيل الله يسوقها على طريقته فى الترغيب فيما يريد أن يرغب فيه، فهو يبدأ للمرة الثانية فى السورة بنداء المؤمنين بصفة الإيمان بكل ما يحمله هذا النداء من المعانى التى سبق ذكرها، ولعلنا نذكر كيف عاتبهم على تقصيرهم فى العمل ، وقد كانوا يتحرقون شوقا إلى عمل من الأعمال العظيمة ينالون به مرضاة الله وحسن مثوبته

---

(١) التوبة ٩/ ١٤.

(٢) محمد ٤٨/ ٧.

(٣) المائدة ٥/ ٥٤.

فلما جد الجد وكان القتال بما فيه من تضحية بدمائهم وأنفسهم لم يثبتوا، فقال لهم فى بداية السورة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ وهنا يناديهم ليرشدهم - في رفق - إلى طريق الرشاد والسداد والسعادة في الدنيا والآخرة فيقول ما تلوناه منذ قليل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾وما بعدها من الآيات إنه لم يقل لهم :إن كنتم تريدون نصرى فجاهدوا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى، إنما ابتدرهم بهذا السؤال:هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم؟ ومن الذى يرفض هذه الصفقة الرابحة؟ إن المؤمن الحق لا يمتلك إلا أن يلبى هذه الدعوة، وأن يستجيب لهذا النداء، وأن ينتهز الفرصة ليحقق لنفسه هذا الربح المضمون، وكم فى كلمات هذا السؤال من معان ودلالات، فهذا سؤال تقريرى للإرشاد والتوجيه، وفي قوله: هل أدلكم: لابد أن نلتفت إلى الذى يسأل هذا السؤال ، ومن يُسألون هذا السؤال، والذى يَسْأل هوالله الذى خلق الخلق وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير، ومن يُسْألون هم المؤمنون، والمؤمنون شأنهم شأن كل إنسان بما فيه من ضعف وعدم القدرة على اختيار ما ينفع على وجه الدقة نظرا لغلبة الجهل ببواطن الأمور وما تحمله الأيام مما لاسبيل إلى الإحاطة به إلا عن طريق الإله الذى يعلم غيب السموات والأرض، والكلمة تصوير رائع لجماعة فى طريق وقفوا حيارى لا يعرفون كيف يصلون إلى غايتهم فإذا بمن يعرف هذا الطريق حق المعرفة قد جاءهم يعرض عليهم أن يدلهم على الطريق الذى يسلكونه ليصلوا إلا هدفهم، أو هى ترسم مشهدا عظيما لقوم غرباء نزلوا إلى سوق غاص بالكثير من السلع، يريدون أن يتاجروا وأن يربحوا، والسوق به الصالح والطالح، وبه الغشاشون والمحتالون، ومن يعرضون بضاعة فاسدة لكنهم

جنات ،وتنكيرها يفـيد تعظيمـها وأنها جنات لا تحيـط العبارات بوصفـها ففيـها مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وقد وصفت بأنها تجرى من تحتها الأنهار. ولعل فى التعبير بقوله:« تجـرى» ما يفيد استمرار جريان مائها مما يجعله متجددا، لأن الماءالراكد يفسد بالركود وعدم الجريان ، ولذلك جعل الله الماء غير الجـارى ماء مالحا لتـحفظه الملوحة من التعـفن، وهذا ما نراه فى وصف ماء الجنة بأنه غـير آسن ، ولـم يرد هذا الوصف إلا فى سورة « محـمد» فى قوله تعالى ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾[1] وقوله : من «تحتهـا» تدل على أن بالجنة قصورا، وفـيها أشجار ، وأن هذه الأنـهار تجرى من تحت قصورها وأشجارها، قال تعالى :﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[2] وقـال:﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ [3]والأنهار جمع نهـر، والنهر هو الماء العذب، والجمع يفيد أنها أنهارٌ وليست نهراً واحـد وفيها غير أنهار المياه الجارية أنهار أخرى كما قال: ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾، وقد سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن أنهار الجنة: أفى أخدود؟قال:لا . ولكنـها تجرى على أرض الجنة مستكفـة لا يفيض ههنا ولا ههنا، قال الله لها: كونى فكانت .»[4] .

ومـن هـذه الأنـهـار نهـر الكوثـر الذى أعـطاه الله لـرسـولـه مـحـمـد ﷺ فقال:﴿ إنا أعطيناك الكوثر﴾وهوكما يقـول رسول الله ﷺ :«نهر فى الجنة حافتاه

---

(١) محمد ١٥.

(٢) العنكبوت : ٥٨.

(٣) الزمر ٢٠.

(٤) رواه ابن أبى الدنيا موقوفا بإسناد حسن.

من ذهب ومجراه على الدر والياقوت، وتربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج»(١).

وروى البخارى عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: بينا أنا أسير فى الجنة إذ أنا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المَجَّوف، فقلت: ما هذا يا جبريل قال: هذا الكوثر الذى أعطاك ربك، قال: فضرب المَلَك بيده فإذا طينة مسك أذفر «أى طيب الرائحة» وذلك ليلة الإسراء والمعراج .

ومن وَعْدِه الكريم كذلك أن يدخلهم « مساكن طيبة فى جنات عدن » والمساكن : جمع مسكن ، وهو المكان الذى يسكن فيه صاحبه فيشعر بالسكينة وراحة البال، وهنا عبرّ بالمساكن وجعلها نكرة ، والجمع يفيد الكثرة والتنكير يفيد التعظيم فهى ليست مسكنا واحدا إنما هى مساكن، ومساكن عظيمة ، ومما يزيد عظمتها وصفها بأنها « طيبة»أى هى طيبة فى نفسها لجمالها ، وما فيها من ألوان النعيم، والنفوس تستطيبها لما تشعر به فيها من السعادة والبهجة والأنس، ومن يقرأ فى سنة رسول الله ﷺ ما جاء فى وصف الجنة وما فيها من ألوان النعيم يتضح له معنى : ومساكن طيبة فى جنات عدن.

روى الإمام مسلم بسنده عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أن موسى عليه السلام سأل ربه، ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ فقال: رجل يجئ بعد ما دخل أهل الجنة الجنة فيقال له:أدخل الجنة: فيقول: ربِّ كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم « أى درجاتهم» فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا، فيقول: رضيت رب، فيقول له: لك ذلك ومثله ومثله ومثله، فقال فى الخامسة : رضيت رب، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ولذّتْ عينك، فيقول : رضيت ربِّ قال: رَبِّ فأعلاهم منزلة؟

(١) رواه ابن ماجه، والترمذى وقال : حديث حسن صحيح.

قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدى، وختمت عليها، فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر.

وروى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدرىَّ الغابر فى الأفق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم ، قالوا: يارسول الله ، تلك منازل الأنبياءلا يبلغها غيرهم، قال: بلى والذى نفسى بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين .

وتأمل معى حتى تزداد شوقا إلى المساكن الطيبة فى جنات النعيم ما روى عن على رضى الله عنه أنه سأل رسول الله ، عن هذه الآية: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا﴾قال: قلت يا رسول الله ما الوفد إلا ركبٌ، قال النبى ﷺ : والذى نفسي بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم استُقْبلوا بنوق بيض، لها أجنحة عليها رحال الذهب ، شُرُك نعالهم نور يتلألأ ، كل خطوة منها مِثل مد البصر، وينتهون إلى باب الجنة ، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب ، وإذا شجرة على باب الجنة ينبع من أصلها عينان، فإذا شربوا من أحدهما جرت فى وجوههم بنضرة الغيم ، وإذا توضأوا من الأخرى لم تُشعث أشعارهم أبداً فيضربون الحلقة بالصفيحة، فلو سمعت طنين الحلقةيا على ! !فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل فتستخفها العجلة فتبعث قيمًا فيفتح له الباب، فلولا أن الله عز وجل عرفه نفسه لخر له ساجدا مما يرى من النور والبهاء، فيقول أنا قَيِّمكُ الذى وُكلِّتُ بأمرك فيتبعُه فيقفو أثره فيأتى زوجته فتسخفها العجلة فتخرج من الخيمة فتعانقه وتقول: أنت حبى وأنا حبك « أى حبيبتك» وأنا الراضية فلا أسخط أبداً وأنا الناعمة فلا أبأس ابداً ، وأنا الخالدة فلا أظعن أبدا، فيدخل بيتا من أساسه إلى سقفه مائه ألف ذراع مبنى علىَ جندل اللؤلؤ والياقوت: طرائق

حُمْرٌ وطرائق خضرٌ وطرائق صُفْرٌ ما منها طريقة تشاكل صاحبتها... إلى أن يقول : تجرى من تحتهم أنهار مطَّردة ، أنهار من ماء غير آسن صاف ليس فيه كَدَر وأنهار من عسل مصفى، لم يخرج من بطون النحل ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، لم تعصره الرجال بأقدامها، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه لم يخرج من بطون الماشية ، فإذا اشتهوا الطعام جاءتهم طير بيض فترفع أجنحتها فيأكلون من جنوبها من أى الألوان شاءوا ، ثم تطير فتذهب ، وفيها ثمار متدلية، إذا اشتهوها انبعث الغُصْنُ إليهم فيأكلون من أى الثمار شاءوا، إن شاء قائما وإن شاء متكئا وذلك قوله ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾(١) وبين أيديهم خدم كاللؤلؤ، وفى لفظ ابن أبى الدنيا، فنظروا إلى تلك النعمة ثم اتكأوا ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ (٢) ثم ينادى مناد : تحيون فلا تموتون أبدا، وتقيمون فلا تظعنون أبدا، وتصِحُّون فلا تمرضون أبدا»(٣) .

وإن كل نعيم فى الدنيا إلى زوال، ولهذا تشعر النفس فيه بالألم وتتحسر لفراقه، وهو وإن عظم فهو متاع قليل: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ (٤) ولذلك قال هنا «فى جنات عدن» أى هذا النعيم فى الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار، والتى فيها المساكن الطيبة والقصور العظيمة بما فيها من سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة كل ذلك باقٍ لا يفنى ولا يزول، فيجتمع خلود الجنة وما فيها مع خلود من فيها من

---

(١) الرحمن : ٥٤.
(٢) الأعراف : ٤٣.
(٣) يقول الإمام المنذرى فى الترغيب والترهيب ٤/ ٤٩٥ ، ٤٩٦ رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب صفة الجنة عن الحارث ، وهو الأعور عن على مرفوعا هكذا ، ورواه ابن أبى الدنيا أيضا والبيهقى وغيرهما عن عاصم بن ضمرة عن على موقوف عليه بنحوه ، وهو أصح وأشهر . أقول : والموقوف فى هذا له حكم المرفوع.
(٤) النساء: ٧٧.

المؤمنين فيكون بهذا تمام النعمة وتمام السعادة، فهى جنات إقامة دائمة وليست إلى حين، أو هذا نوع من الجنات يسمى يجنات عدن، فالله عز وجل وعد المؤمنين المجاهدين أولاً بأن يغفر لهم ذنوبهم وثانيا: أن يدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار وثالثا:أن يسكنهم مساكن طيبة ورابعا أن يدخلهم جنات عدن، وهذا ما نقرؤه فى قوله تعالى:﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾(١) وفى غير ذلك من المواضع الأحد عشر التى وردت فيها كلمة «عدن» ولم ترد فى القرآن إلا مضافة للجنات ، ومن ذلك قوله تعالى:﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾(٢).وقوله فيما يدعو به حملة العرش للمؤمنين:﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣)إلى أخر هذا الدعاء العظيم ، فهى جنات مخصوصة وهذا اسمها. ومما يدل على ذلك ما رواه الدارقطنى وابن مردويه من حديث أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ :عَدْنٌ دار الله تعالى لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر لا يسكنها غير ثلاثة:النبيون والصديقون والشهداء، يقول الله سبحانه:طوبى لمن دخلك»ورُوِى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن فى الجنة قصرا يقال له «عدْن» حوله البروج والمروج له خمسة آلاف باب لا يدخله إلا نبى أو صديق أو شهيد»(٤).

والرأى الأول هو الذى يرجحه سياق الآيات ، وكأنه وَصَفَ ما وعدوا به

---

(١) مريم ٦١.

(٢) الرعد ٢٣ , ٢٤.

(٣) غافر ٨.

(٤) انظر روح المعانى للألوسى ١٠/ ١٣٦.

أولا بأنه من جنس ما هو أشرف الأماكن المعروفة عندهم من الجنات ذات الأنهار الجارية لتميل إليه طباعهم أول ما يقرع أسماعهم، ثم وصفه بأنه محفوف بطيب العيش معْرى عن شوائب الكدورات التى لا تكاد تخلو عنها أماكن الدنيا وأهلها، وفيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ثم وصفه بأنه دار إقامة بلا ارتحال ، وثبات بلا زوال »[1] وهذا الربح الوفير والأجر ا لجزيل ما إخالك إلا قائلا بأن هذا لا يعدله شئ مما عرف الناس فى دنياهم من ربح فى تجارتهم ، وهذا هو الذى جعل القرآن يقول: **«ذلك الفوز العظيم »** فيشير إليه باسم الإشارة «ذلك» كما أشار إليه مجملا قبل فى قوله: **« ذلكم خير لكم »** وهو اسم إشارة للبعيد، للدلالة على بعد منزلة هذا الربح الذى حصل عليه المؤمنون المجاهدون ، وتأمل معى فى هذا الختام للآية« ذلك الفوز العظيم» فكل كلمة من كلماته الثلاثة تدعو إلى المبادرة والمسارعة إلى الإنضمام لركب المؤمنين المجاهدين، وقد علمت ما فى اسم الإشارة من بيان لعلو درجة ما ربحوه، وهل هناك أعظم من مغفرة الذنوب وستر العيوب والخلود الأبدى فى جنات تجرى من تحتها الأنهار؟ وتأتى كلمة «الفوز» إخباراً عما ناله هؤلاء المؤمنون، وكلمة الفوز لها هنا طعم خاص، إنها تختلف عن كلمة الربح ، وكلمة الأجر وكلمة الثواب، فلماذا اختار هذه الكلمة هنا؟ ما معناها؟ ولماذا وصفت بقوله:العظيم فقال:«ذلك الفوز العظيم» ؟

إن كلمة «الفوز» تعنى: الظفر بالمطلوب، فكل إنسان فى هذه الدنيا له آمال يتمنى أن يحققها ، ويبذل من أجلها قصارى جهده فى الحصول عليها فإذا حصل عليها بعد جهاد نقول بأنه ظفر بها أى استحوذ عليها دون الآخرين، ومثل هذا لا يكون إلا فى الأشياء الثمينة والمناصب الرفيعة والآمال العظيمة والمطالب العالية، ومن أكرمه الله بشئ من ذلك نقول بأنه فاز به، ومن نظر بعين الاعتبار علم أن الفوز الحقيقى هو الفوز في الآخرة، فكل فوز فى الدنيا إلى نهاية، وماذا

(١)انظر: روح المعانى : للألوسى ١٠/ ١٣٦ ، ١٣٧.

بعد ما فيها من مناصب رفيعة، ومراكب فاخرة ومساكن وأموال ورياسة ومتاع ، كم من السنوات ستتمتع بهـذا المتاع؟ إنه إما أن تفـارقه أو يفارقك. لكن مـتاع الآخرة مـتاع باق لا يفنـى ولايزول وهو فى نفسـه لا يقارن بأى مـتاع من مـتاع الدنيـا ولذلك يقول تعـالى:﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَـةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّـوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِـيَامَةِ فَـمَن زُحْـزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَـازَ وَمَا الْحَـيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَـتَاعُ الْغُرُورِ﴾(1).

ويقول فى الصافات بعد أن عرض ما للمؤمنين وما للكافرين﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾(2).

ويقـول فى القـصص:﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلا تَعْقِلُونَ * أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾(3).

وقـال فى الـزخـرف:﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّـةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُـرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُـوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّـةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ* وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْـهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَـاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(4).

ولذلك لا يحزن المؤمن لحظ فاته من حظوظ الدنيا فلعل ذلك خير:﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْـئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْـئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُـونَ﴾(5).لكنه يحزن كـثيراً لحظ فـاته من حظوظ الآخرة، ولذلك

(1) آل عمران ١٨٥.
(2) الصافات : ٦٠ ـ ٦١
(3) القصص آية ٦٠ , ٦١.
(4) الزخرف ٣٣ , ٣٤، ٣٥
(5) البقرة٢١٦.

وجدنا من تربوا فى أحضان النبوة يدركون هذه الحقيقة فتراهم يبكون لأن الفرصة لم تتيسر لهم ليخرجوا مع رسول الله ﷺ للجهاد فى سبيل الله ، وفى هذا يقول ربنا: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ (١).

يقول رسول الله ﷺ : إن بالمدينة أقواما ما قطعتم واديا ولا سرتم سيرا إلا وهم معكم، قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: نعم ، حبسهم العذر، وفى رواية« لقد خلفتم بالمدينة أقواما، ما أنفقتم من نفقة ولا قطعتم واديا ولا نلتم من عدو نيلا إلا وقد شاركوكم الأجر، ثم قرأ ، ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾الآية ، وانظر إلى حال سلفنا الصالح حين كانت صلاة الجماعة تفوت واحدا منهم؟ كانوا يعزونه سبعة أيام فإذا فاتته تكبيرة الإحرام مع الإمام عزوه ثلاثة أيام يقولون فى التعزية: ليس المصاب من فقد الأحباب إنما المصاب من حرم الأجر والثواب ، فهؤلاء المؤمنون المجاهدون عاشوا من أجل هدف، تاجروا مع الله فربحوا وظفروا بمطلوبهم وحققوا آمالهم وفازوا بجنات النعيم، فهل هناك أعظم من هذا الفوز ولذلك وصفه بالعظمة فقال، «ذلك الفوز العظيم»، فأتى بكلمة «العظيم» وهى من صيغ المبالغة، ليرشدنا إلى أن عظمة هذا الفوز لا تقارن بغيرها ، ولهذا قصر الفوز على هذا الذى ربحه المؤمنون وكأنه قال: ذلك الفوز العظيم الذى ليس بعده فوز .

ومع هذا الربح فى الآخرة . والذى هو مطلب أهل الإيمان هناك ربح آخر فى الدنيا تراه فى قول الله تعالى : ﴿وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب﴾

---

(١)التوبة ٩١ , ٩٢.

فلنقف عند كلمات هذه الآية من آيات سورة الصف لنرى ما فيها من أنوار وأسرار، فقد بدأت بهذه الإثارة وذلك التشويق «وأخرى تحبونها» ، أى هل أدلكم على خصلة أخرى تحبونها بعد أن دللتكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم؟ أو ولكم خصلة أخرى أو ويعطيكم منحة أخرى فوق ما أعطاكم من منح ومنن في الآخرة، وقد وصف هذه المنحة وتلك العطية بأنها محبوبة من أهل الإيمان ، وعبر عن هذه المحبة بقوله: «تحبونها» مما يدل على تجدد هذه المنحة واستمرارها والنفوس حين قيل لها ذلك تشوفت إلى معرفة هذه الخصلة وتلك الهدية وتساءلت ما هى فجاءتها الإجابة بقوله: ﴿ نصر من الله وفتح قريب* وبشر المؤمنين﴾وإنما كانت هذه المنحة محبوبة لأهل الإيمان، لأن فيها وبها حقق الله الأمل، وجنى المؤمنون ثمار الجهاد ، فقرت أعينهم بما أفاء الله عليهم من نصره والتمكين لدينه، وليس فى هذا ـ كما يقول بعض المفسرين ـ لَوْمٌ لهم لحبهم للعاجلة، لما فى طبع كثير من الناس من حب الدنيا، كما قال تعالى: ﴿كلا بل تحبون العاجلة وتذورن الآخرة ﴾وكما قال: إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا»، فالمؤمنون المجاهدون نذروا أنفسهم لله ، وحملوا أرواحهم على أكفهم يجودون بها في سبيله ، وهم حين يفعلون ذلك لا يبتغون عرضا من أعراض الدنيا ، لكن فرحتهم ستكون عظيمة إذا منّ الله عليهم بنصره، لأنهم يرون فى هذا النصر إسقاطا لمعقل من معاقل الظلم وفتحا للطريق لبنى الإنسان ليروا ضوء الحقيقة الساطعة ، ونور الله وضّاءً مشرقا فترتفع من فوق المآذن والمنابر كلمة التوحيد ، وتخر الجباه ساجدة لله رب العالمين ولذلك قال تعالى : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (١)فليس هذا من الفرح

(١) الروم ٤ ,٥ ,٦.

المذموم وإنما هذا فرح محمود، وحب مطلوب، وأمل تحقق فيه إعلاء لكلمة الله، وإتمامٌ لنوره وإظهار لدينه، فهو ثمرة مباركة من ثمار الجهاد، وهدية غالية من رب العباد إنها « نصر من الله وفتح قريب» وقد جاءت كل من كلمة« نصر» وكلمة«فتح» نكرة مما يدلك على أن هذا نصر عظيم، وفتح تقر به العيون وتنشرح به الصدور، ولذلك قيل بأن هذا النصر هو نصرهم على قريش، وذلك الفتح هو فتح مكة، وقيل بأن هذا هو نصرهم على الفرس والروم وفتح بلادهم، وكلاهما كان قريبا، إذ لم تمض سنوات معدودات على خروج رسول الله ﷺ من مكة مهاجرا إلى المدينة مستخفيا عن عيون المشركين بما هو معلوم فى قصة الهجرة حتى عاد فى رمضان من العام الثامن الهجرى فاتحا منتصرا فى عشرة آلاف من أصحابه المؤمنين المجاهدين وقد وقف يقول لأهل مكة من المشركين الذين حاربوه وعاندوه وأخرجوه: ما تظنون أنى فاعل بكم؟قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم.قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، كما لم تمض عدة سنوات حتى كانت جيوش الفتح تطرق أبواب كسرى وقيصر فى دولتى فارس والروم فما أغنت عن هاتين الدولتين ما امتلكتا من عدد وعدة، ولم تمتلك إلا أن تذعن وتفتح أبوابها لهؤلاء المجاهدين، ويبقى ـ بعد ذلك ـ هذا الوعد من الله لعباده المجاهدين بنصرهم وفتح بلاد الله لهم، بشرى طيبة، ودرسا نافعا مفيدا لهذه الأمة :أنه لا نصر ولا فتح دون إيمان صادق وجهاد مخلص ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾(١).

﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ *

---

(١) محمد ٤.

الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾(١).

وفى ختام الآية يقول ربنا: ﴿وبشر المؤمنين﴾ ويعجبنى فى هذا المقام قول من قال: فأبشر يا محمد وبشر المؤمنين،فالواو عاطفة على قوله:فأبشر، والبشرى: الخبر السار الذى تظهر آثاره على البَشَرة تهللا وإشراقا ،والكلمة تحمل هذا المعنى وعلى قدر ما فى الخبر من مسرة تكون آثاره على وجه من بُشر به .

والمُبشَّر به هنا هو كل ما سبق : من خيرى الدنيا والآخرة، من مغفرة الذنوب وإدخال الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار والمساكن الطيبية فى جنات عدن. والنصر من الله والفتح القريب، والعدول عن الإضمار إلى الإظهار فى قوله: وبشر المؤمنين؛ ليدل على السبب الذى من أجله استحقوا هذه البشارة، إنه الإيمان الذى بدأت به تجارتهم مع الله فى قوله: تؤمنون بالله، والذى أشعل فى جوانحهم نورا اهتدوا به إلى الطريق، فرأو أن الجهاد فى سبيل الله هو وسيلة حماية دينهم وأرضهم وعرضهم وهو السبيل لإظهار دينهم والتمكين لشريعتهم وقرآنهم، فكانوا أن تاجروا مع الله بهذه الألوان الرابحة ، ولهذا جاء يؤكد هذه الحقيقة فى سياق هذه الخير العاجل من نصر الله وفتحه القريب فلم يقل وبشرهم إنما قال: وبشر المؤمنين.

ومرة ثالثة يناديهم بصفة الإيمان ليكون هذا النداء وما نودوا إليه مسك الختام للسورة الكريمة فيقول:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ...الآية﴾، وكان الظاهر أن يقال:وبشر المؤمنين وقل لهم : كونوا أنصار الله ، ولكن النسق القرآنى، أقتضى أن تنتهى الآية بقوله:«وبشر المؤمنين» لتتشوق القلوب إلى معرفة ما يترتب على هذه البشرى ، وما يؤدى إلى استمرارها، باستمرار نصر الله للمؤمنين

---

(١) الحج ٤٠ , ٤١.

فقال:«يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله»، وقد عرفت ما فى هذا النداء من حث وتوجيه كريم لمتطلبات الإيمان ومقتضياته، وأن من دلائل الإيمان أن تكونوا أنصار الله ، فتأمل معى وانظر بنور الله إلى هذه العبارة: كونوا أنصار الله، فماذا ترى فيها ؟ ألاترى أن قوله:«كونوا»تعنى أن أمر الجهاد والنصرة لله ليست عملا فرديا، ولا انفعالاً مؤقتا من بعض المؤمنين المتحمسين الغيورين هنا وهناك، إن هذا عمل أمة، عمل أمة مؤمنة متناصرة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، تعمل فى منظومة متكاملة وفق خطة ربانية تترسم خطا الوحى الإلهى وتنقاد لشريعة غراء، وترى فيها كل فرد يعمل من خلال المجموع، ومن خلال نظام،ومن خلال قيادة، وإلا فماذا يستطيع فرد أومجموعة أفراد أن يعملوا فى نصرة ربهم، فيفتحوا البلاد وينشروا دين الله وهم بلا خطة وبلا نظام وبلا أمة، وبلا قيادة تنفذ وحى السماء وتعرف هدفها فتصر عليه وتخطط له، وتبذل الغالى والنفيس من أجله؟والهدف واضح إنه إعلاء كلمة الله، وتبليغ رسالته للعالمين، وربما قال متحذلق إن مقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة أفرادًا بمعنى أن الله حين يقول :«يا أيها الذين آمنوا» فهذا نداء لكل فرد من المؤمنين وإذا قال:كونوا أنصار الله فهذا معناه أن كل و احد من المؤمنين مأمور أن يكون ناصراً لله، وهذا وإن كان صحيحا فى مدلوله، لكن العدول إلى مخاطبة المجموع بأن يكونوا أنصار الله هو ما نبحث عن سره، والواقع يؤكد ما نقول، فما فرض الجهاد إلا بعد الهجرة حين أصبح للمسلمين على أرض المدينة دولة يحكمها نظام ولها قيادة وتنزلت لها التشريعات لتنظم هذا المجتمع ، وأضحى للمسلمين حكومة تتمثل فيها كل ما للحكومة من مقومات، حينذاك فرض الجهاد، يعقد راية المجاهدين رسول الله ﷺ وينَصِّبُ القادة، وينظم الصفوف ويقود المؤمنين فى معاركهم، ويتحقق النصر وتكون الغنائم ويتم توزيعها وفق ما جاء فى كتاب الله ، وتعقد المعاهدات ويتم الصلح، مع أمة الإسلام ممثلة فى قائدها ومن بعده خلفاؤه ومَنْ بعدهم من الخلفاء فى دولة الإسلام ، فهذا النداء إذن وما يتبعه من الأمر بقوله : كونوا أنصار الله له معناه ومغزاه .

ونصرة الله كيف تكون؟ إنها بكل ألوان النصرة، وفى مقدمة ذلك الجهاد لحماية دينه ونصرة نبيه، ونشر دعوته وتبليغ رسالته، وما يتبع ذلك من إعداد

الفرد لنفسه : بإقامتها على منهج الله ، ولبيته وأبنائه : بتربيتهم على آداب الإسلام وقيمه ومبادئه وعباداته ومعاملاته، وفى عمله : بالإخلاص فيه وأدائه على أفضل وجوه الأداء ، ولمجتمعه : بقيامه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومساندة الضعاف فيه، والعمل الدؤب على إصلاح شأنه، والنهوض به وحماية أرضه وعرضه ونشر الفضيلة والأخلاق الكريمة بين ربوعه، وأن يكون المسلم نورا يهتدى به الحيارى فى ظلمة الطريق، ووردة يفوح شذاها فى كل مكان لا شوكا يصيب الناس بالأذى ، وأن يكون الدواء لكل علة، والشفاء لكل مريض، والأمل لكل محتاج ، ينفس عن المكروبين كربهم ،ويفرج عن المهمومين همومهم يستر عورة أمته وإخوانه، بهذا كله مما يطول الحديث فيه يحقق المؤمن قول الله ونداءه:«يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله » ولا تظن أن الجهاد في ساحات الوغى يأتى به نصر من أمة مهزومة من داخلها، محرومة من حقها فى الحياة ينخر فيها سوس الفقر والخوف والمرض والتطرف والتعادى وكأن من فيها سمك فى البحر يأكل كبيره صغيره أو وحوش فى الغابة يعتدى القوى فيها على الضعيف ، فمثل هذه الأمة لن تشرق لها شمس، ولن يتم لها نصر، ولن تحقق غاية ولا هدفا لأنها تحيا بلا غاية وبلا هدف إلا أن يكون هذا الهدف إرواء شهوة عارضة، واقتناص لذة عاجلة . وفى سبيل بطن مملوء ، ومتعة موهومة ترخص مبادئى الخير والعدل، وتنتهك المبادئ والقيم الإلهية وينتشر الفساد حتى تسمى الأشياء بغير مسمياتها فالرشوة إكرامية، ونهب المال العام شطارة، والعُرْىُ والخلاعة مدنية وحضارة، والنفاق والوصولية على رقاب الناس وسائل مشروعة فى هذا الزمان ، إن الدعوة لأهل الإيمان ليكونوا أنصار الله تعنى ضرب كل هذا الفساد واقتلاع جذوره، وإقامة الإسلام على شريعة العدل والحق والخير، لتكون أمةً مُعَدَّة إعداداً كاملا للوقوف فى وجه الشر والظلم والكفر والضلال فى كل مكان من أرض الله تحريرا للإنسان حيثما كان الإنسان من الطواغيت الذين يحولون بينه وبين نور الإيمان الذى به سعادة الإنسان ، فهكذا كان المسلمون الأوائل الذين فتحوا البلاد فى المشارق والمغارب، لا لأن أحداً اعتدى عليهم فردوا عن أنفسهم العدوان كما يتوهم من يفسرون الجهاد الإسلامى بأنه كان دفاعا عن المسلمين، ولكن لأن

المسلمين حبا منهم فى إخوتهم فى الإنسانية أرادوا إيصال هذا الدين إليهم، وكان لابد من إسقاط معاقل الكفر حيثما كانت ، فكان هذا الخير الذى سعدت به الدنيا فى كل مكان فجزاهم الله عن بنى الإنسان خير الجزاء وهذا الأمر للمؤمنين أن يكونوا أنصار الله ، لم يذكر فى القرآن هكذا إلا فى هذه الآية الكريمة، ولم يذكر لأحد من الأمم السابقة من أتباع الأنبياء ، وفى هذا تشريف لأمة محمد ﷺ ، أن يوجه الله أمره إلى المؤمنين فيها أن يكونوا أنصاراً له، وهو الإله القوى القادر القاهر، والنصر إنما يكون من عنده وحده.﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾(١)ولكنه أراد تكريما لهذه الأمة وتشريفا لها وإعلاء لقدرها فندبها لنصرته، وجعل جهادها سببا فى التمكين لدينه وإتمام نوره، فالحمد لله على ذلك حمدا كثيراً.

وتأكيدا وترغيبا فى أن يحظى المؤمنون بهذا الشرف وأن يكونوا أنصار الله قال تعالى:«﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾»، وفى هذا النظم البديع لون من جمال التعبير القرآنى يسمى «بالاحتباك »وهو أن يحذف من كل منهما ما يدل عليه الآخرفكأنه قال: كونوا أنصار الله حين قال لكم النبى ﷺ : من أنصارى إلى الله؟ كما قال الحواريون نحن أنصار الله حين قال لهم عيسى عليه السلام . من أنصارى إلى الله، فحذف من كل منهما ما دل عليه المذكور فى الآخر، ولعلنا نذكر في تاريخ الدعوة ما كان من حال رسول الله ﷺ فى عرض نفسه على قبائل العرب، يبلغهم أنه رسول الله ويعرض عليهم الإسلام ويطلب منهم أن يصدقوه وأن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه إلى أن كان ما كان من إكرام الله للأوس والخزرج وما تم فى بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية وكان مما قال رسول الله ﷺ فى العقبة الثانية بعد أ ن تلا القرآن ورغب فى الإسلام ودعا إلى الله قال: أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال : نعم، والذى بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما نمنع منه أزرنا« أى أنفسنا ونساءنا» فبايعْنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة « أى السلاح» ورثناها كابرا عن كابر» ، فاعترض

(١) آل عمران آية ٦٠.

القولَ والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان فقال: يارسول الله: بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا قال: فتبسم رسول الله ثم قال: بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم . ثم قال رسول الله ﷺ : أخرجوا إلىَّ منكم اثنى عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا : تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ثم قال ﷺ للنقباء : أنتم على قومكم بما بينهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قوي - يعني المسلمين - قالوا : نعم » وقد سمى الله أهل المدينة مَنْ أسلم منهم : الأنصار ، وامتدحهم وأثنى عليهم كما أثنى على من آمن من المسلمين الأوائل والذين هاجروا مع رسول الله ﷺ وسماهم بالمهاجرين فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(١).

وقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾(٢).

ثم قال في الأنصار: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٣).

وإذا كانت كلمة الأنصار وصفا لهذه الثلة المباركة لمن أسلم من الأوس والخزرج فكانوا بحق أنصار الله وأنصار رسول الله ، وكانت هذه النصرة سببا لفلاحهم فهذا يصح أن يكون وصفا لكل من نصر الله ورسوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٤) ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٥).

---

(١) التوبة: ١٠٠. (٢) الحشر ٨.
(٣) الحشر ٩. (٤) الحج
(٥) الأعراف ١٥٧.

وما زالت دعوة رسولـه قائمة فى فم الزمان تهيب بالمؤمنين وتـصرخ فيهم: من أنصارى إلـى الله؟ والفلاح والنجاح والـنجاة والربح الوفـير والخيـر العظيم وعد صـادق من الإله الكريم لمن لبى النداء، واستجـاب لهذه الدعوة المبـاركة فكان من أنصار الله ، هكذا جـرت سنة الله فى الأنبياء وأممهم ، والـمثل يضربه القرآن من أقرب رسالة تلكم هى رسالة عيسى وما كان من أمره مع بنى إسرائيل ، حين وقـفت الأهواء في طريقـه، وحب الدنيا في سبيل دعـوته قال: ﴿ مَـــن أَنصَـارِي إِلَى اللَّهِ قَـالَ الْحَـوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَـارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ .

وفى سورة آل عمـران يتوجه السؤال إلى بنـى إسرائيل عموما قـال تعالى : ﴿فَلَمَّـا أَحَسَّ عِيـسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْـرَ قَـالَ مَنْ أَنصَـارِي إِلَى اللَّهِ قَـالَ الْحَـوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَـارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(١) وهذا الإطلاق تخـصـصه سـورة الصف فى قـوله: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَـوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَـارُ اللَّهِ﴾ وهذا من توفيق الله لهـم أن ألهمهم حب عـيسى والإيمان برسـالته فـحين قـال الذين كفروا مـن بني إسرائيل لعـيسى: إن هذا إلا سحر مبين ،كان من أمر الحواريين ما ذكرته سورة المائدة : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾(٢) وهــؤلاء الحواريون هـم أصحاب عـيسى الخلص وكـانوا اثنى عشـر رجلا وقـيل كانوا تسعـة وعشـرين، أكابرهم الإثنا عـشر رجـلا ؛ ومن هنا صح التشـبيـه فى قول رسول الله ﷺ فى بيعة العقـبة حيث طلب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج أن يختـاروا منهم اثنى عشـر نقيـبا ليكونوا على قـومهم فـفعلوا فقـال ﷺ أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومى «أى من المسلمين»، وفى تسـمية أصحاب عيـسى بالحواريين جملة من الآراء أقربها أن الحواريين جمع حوارى يقال فلان حوارى فلان أى صفوته وخاصته من الحور وهو البياض الخـالص ومنه الحواريات للحضريات لخلوص ألوانهن ونقائهن ، سمى به أصحاب عيـسى عليه السلام لخلوص نياتهم ونقاء سرائرهم

(١) آل عمران ٥٢.

(٢) المائدة ١١٠.

وقيل لما عليهم من آثار العبادة وأنوارها، وكانوا من كل الطبقات من الملوك وصيادى السمك والصباغين، والكل كما يقول القفال: سموا بالحواريين لأنهم كانوا أنصار عيسى وأعوانه المخلصين فى طاعته ومحبته» (١)وتأمل معى قول عيسى للحواريين : من أنصارى إلى الله؟ لتلمح ما فى هذا السؤال من استصراخ يدل على ما أحاط به من كرب وما نزل به من كيد، وما يجده من صد وعدوان وظلم ، ومع ثقة الأنبياء فى نصر الله إلا أنهم يعلمون أن هذا النصر يسير وفق سنن ومنها استفراغ الجهد البشرى في اكتساب النصر ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.(٢)والتعبير بقوله: «إلى الله» توحى بوعورة الطريق والحاجة فيه إلى المساعدة، فهذا الرسول كغيره من الرسل يسير فى طريق يبدأ من لحظة اختياره رسولا يبلغ عن الله رسالته إلى أن يُتمَّ الله عليه النعمة بنصره وتأييده، يقطع مراحل هذا الطريق وكله أشواك ودموع وألم وجهد وجهاد وتعب ومشقة فهو يريد معه ثلة تؤمن برسالته وتتحمل المشقة معه حتى يعبر مراحل هذا الطريق لنهايته ولذلك جاءت الإجابة : نحن أنصار الله . أى نحن بمجموعنا أنصار الله وأعوانه آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ، فنحن سنكون معك فى الوصول إلى تحقيق الأمل في تبليغ رسالتك، ولما تآمر المجرمون على قتله رفعه الله إليه ، وبعد رفعه كان الناس فريقين :﴿ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ وهكذا ينصر الله أولياءه وأنبياءه والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات.

***

---

(١) انظر: روح المعانى للألوسى ٣/ ١٧٥، ١٧٦، الفتوحات الإلهية للجمل ١/ ٢٧٧، ٢٧٨.

(٢) يوسف ١١٠.

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٥	**.تقديم**
٧	ـ وجه المناسبة بين سورة الصف والممتحنة
٨	ـ هل سورة الصف مكية أو مدنية وسبب النزول
١٠	**.التفسير**
١٣	**الآية الأولى :**
١٣	ـ التسبيح فى اللغة
١٤	ـ ما ورد منه فى كتاب الله وفى سنة رسول الله ﷺ
٢٠	ـ لماذا عبّر بما فى قوله : ما فى السموات وما فى الأرض؟
٢٢	ـ معنى : وهو العزيز الحكيم
٢٤	**الآية الثانية والثالثة :**
٢٥	ـ سر النداء بـ « يا أيها الذين آمنوا »
٢٧	ـ الاستفهام فى قوله : لم تقولون مالا تفعلون ؟ وأصح الآراء فى سبب
٢٨	نزول الآيتين .
٣٠	ـ المراد من قوله :« كبر مقتا عند الله..»
٣٢	**الآية الرابعة :** « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا ..الآية»
٣٨	**الآية الخامسة:** «وإذ قال موسى لقومه.. الآية»
٤٧	**الآية السادسة :** «وإذ قال عيسى بن مريم ..الآية»
٥٣	**الآية السابعة:**« ومن أظلم ممن أفترى على الله الكذب ... الآية»
٦٧	**الآية الثامنة :**« يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم... الاية»
٦٢	**الآيةالتاسعة :** « هو الذى أرسل رسوله بالهدى... الآية»
٦٧	**الآية العاشر:** « ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة .. الآية »
٧٠	**الآية الحاديةعشرة :**« تؤمنون بالله ورسوله.. الآيه »
٧٦	**الآيه الثانية عشرة:**« يغفر لكم ذنوبكم .. الآية»
٨٦	**الآية الثالثة عشرة:** «وأخرى تحبونها .. الآية»
٨٩	**الآية الرابعة عشرة:** «يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله.. الآيه»
٩٦	فهرس الكتاب